ميرال الطحاوي
نقرات الظباء
رواية
مكتبة نوميديا

نَقَرَات الظِّبَاء

نَقَرَات الظِّبَاء

مِيرَال الطَّحاوي

تصميم الغلاف: .....

الطبعـة الأولى ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: .... / .....

© دار الشروق

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٤٢٤١/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3127-1

مِيرَال الطَّحاوي

نَقَرَات الظِّبَاء

روايَة

على صدري حطِّيت شهايد[1]

بـــلا مـــوت يَـــا عَـلـــم

(١) شهايد: علامات توضع على القبور.

(١)

كانت «هند» دائمًا صغيرةً وبجديلتين وأشرطة، رأيتها تجلس على ساق خادمة، زنجية شديدة السمرة، عقدت الخادمة على رأسها منديلًا أبيض وتطرَّحت بالسواد، كانت الخادمة تلبس ثوبا قصيرا بوردات، وعلى خصرها حزام من الخرز الذي تضعه الغجريات وتحته سروال منتفخ بربطة على معصم الساق، قالوا فيما بعد إن اسم الخادمة «انشراح». كَانَت هند على حجر الخادمة وإلى جوارها أختاها. «سقاوة» الكبرى الممتلئة، و«سهلة» النحيلة حتى الآن. «سهلة» هي التي أعرفها تمامًا والتي تعرفني منذ كنت في الأقمطة وهم يبحثون عن امرأة تلقمني صدرها، والتي صارت أمي في نهاية الحكاية.

جدتي «النجدية» لم تكن في الصورة، كانت حاضرة خلف الإطار، ربما كانت تُعد القهوة على طاولة القاعة الكبيرة، حيث تراقب القدور النحاسية الضخمة، وحركة الخادمات اللاتي انكفأن لتلميعها، أو ربما كانت تفترش الأرض وسط مجلسها في البلكون، تراقب الداخل والخارج في الفناء المطل على أشجار التوت والمزْيَرة،

وبعض غرسات البرتقال التي كانت تبتهج في الربيع بدويِّ النحل حول أزهارها.

في هذا الفناء كبرت «هند»، أراها في مخيلتي طَوال الوقت تسير وهي ممسكة بهذا «الكشكول» الذي تدوِّن فيه أسرارها التي لم يعرفها أحد، تعبر بخطواتها إلى الممشى، تجلس على جذع شجرة المانجو الهندي التي يبدءون في قطافها أولًا؛ لأنها تنضج قبل الأُخْرى، أو تقرفص على غابة من أشجار الجوافة التي في آخر الدغل. هناك سترى «الولد الصغير» ممسكًا بصدر «فرحانة» الخادمة التي تتقافز كقردة فوق التراب، ويتأرجح لهاث صدرها وسط الخرزات التي تنفلت من عقدها، بعد ذلك ستحكي خادمة أخرى اسمها «روضة» سمراء أيضًا ولها زعرورتان من شعر ملبَّد جَعد أن هذا «الولد الصغير» كان ينتظرها أيضا أسفل التلة حيث تعود بالبهائم في المساء وممسكة بمقود المهرات الصغيرات الثلاث. تعرف «هند» أنهم إذا أطفأوا «الكلوب» وانتهوا من حكي الحواديت وتسربت أخواتها إلى فراشهن تاركات الخادمات في قاعة الطبخ يعدلن من وسائد القش تحت رءوسهن، سيحكين عن «الولد الصغير» حكايات أخرى. تقول «روضة» أيضًا: «إنه بلغ. والأولاد في هذه السن يصبحون كالطلائق أو ذكور الجمال إذا هاجت»، وستضحك «انشراح» التي تقول:ألا يكفيه «فاطمة القرومية»؟ ستحاول «هند» التي تتلصص على بقايا الحكي أن تفهم كيف يمكنه فعل ذلك، وهو «الولد النحيل» الذي تراه في الأعياد خجولا يقبِّل يد الجدة «النجدية»، ويقول لها: يا «حنى» بدلًا من يا «آنا» كما يقول الأتراك، وهي تربت على رأسه وَتُصِرُّ في يده قِرْشًا أحمر.

«هند» التي أحكي عنها لم أرها إلا في تلك الصورة التي كانوا يقفون أمامها طويلا في غرفة الضيوف التي امتلأت حوائطها بالصور الباهتة، لم يكن لها صورة عرس، كانت فقط منزوية على حجر خادمتها «انشراح»، صغيرة وبجدائل، يقفون أمامها، ويرددون تلك الكلمة «مسكينة»، وقد صاروا لا يتكلمون عنها؛ لأنها صارت بعيدة وخارج كل ما يخصهم، «مسكينة» يا بنتي، قالت الجدة «النجدية» تلك الكلمة، ثم أكملت أنها لم تصدق حين رأتها آخر مرة كيف صار شعرها كثيف البياض، وجسدها شديد النحول، رأتهم وهم يسكبون الماء على جسدها قبل أن يلفُّوها بالكفن، بعدها نثروا العطور وانصرفوا، دون أن يصرخوا أو يبكوا أو حتى يلبسوا ثياب الحداد، كانت الأسرة قد أعلنت عن موتها قبل ذلك بكثير، من يوم أن أدخلوها البيت الطيني وأغلقوا النوافذ والأبواب، وانسحبوا غير منتبهين إلى صراخها، وقالوا: «مسكينة» ثم تحاشوا ذكر اسمها، رجعوا سريعًا إلى حجراتهم، لكن «هند» منذ ذلك الحين صارت تأتي إليهم في هيئات. أول مرة شاهدوا طيفها وهي تركض في الفناء في هيئة قطة، كنت ناعسة على حجر النجدية، وهي تحكي لي حكاية «السُّهى»؛ تلك الظبية التي ركضت في السماء، ولأنها تركت وليدا صغيرا على الرمال لا يعرف كيف يهرب من صيَّاده، تركت له نقراتها المضيئة نجومًا تتنبأ بمواضع الخطر، تؤمن «النجدية» بأرواح الموتى، تفرد أصابعها محددة ساعات النحس حين يهل الهلال والسهى عن يساره، وأيام الزعابيب حين يصير القمر بدرا، والشعرى اليمانية جنوبًا والسُّهي في القلب، هكذا تؤرِّخ «النجدية» لأيام الضيق وأيام الفَرَج.

نظرت النجدية باتجاه «هند» التي جاءت في هيئة قطة تموء بوجع

ثم لحستني في قدمي قبل أن تختفي بعيدا وسط دهشة الجميع. التفتت «النجدية» إلى «سهلة» الجالسة جوارها، ثم قالت: «يا بنت يا سهلة.. البطن هي التي تكب وليس القلب يانضري شوفي القطة بتلحس في ضناها ازاي»، لم تعلق سهلة، تنهدت ثم أسندت جسدها على عمود التراس، بعدها أنامت رأسي الصغيرة على حجرها، وبدأتْ في تقليب شعري بأصابعها، وأعادت تضفيره، وهي ترتِّل الرقى والتعاويذ، لكن «هند» صارت تأتي أكثر، تتلحس أقدامي ليلا، وتموء، تنبش في السجادة، حتى تجتر خيوطها بمخالبها، وهم يتأملونها بصبر ويطلقون التعاويذ. صرت أقول للنجدية: «يا جدة تلك القطة تشبه المرحومة»، يتبادلون النظرات ثم يربتون على كتفي ويقولون إنها مجرد هواجس، صرت أبكي أكثر كلما ماءت تلك القطة بالليل بما يشبه النواح، حالمة بفضاء أبيض أسير فيه عارية، وهند تطير حولي مثل فراشة، وصرت متأكدة أن الكلاب إذا نبحت فقد رأوا «هند» مثلي، حتى لو كانت في هيئة فراشة أو طيرة أو قطة تلحس في قدمي وأنها كانت تأتي إلى كثيرين مثلي، هى التي قبَّلت «سقاوة» في فمها لترحل، وهي التي جاءت في هيئة امرأة غريبة، جلست بجوار «النجدية» وأسبلت عليها الغطاء، وأغمضت عينيها ثم قالت: الله يرحم الجميع. كانت «هند» هنا وهناك، ولا خلاص من طيفها الغامض.

(٢)

ذات صباح بعيد كما يقولون أخذت الجدة النجدية بناتها الثلاث «سهلة» و«سقاوة» و«هند» وأسلمتهن لمدرسة الراهبات التي كثيرا ما سمعتهم يتحدثون عنها. ظلت البنات عدة سنوات في تلك المدرسة الداخلية التي تديرها الراهبات، حتى أتى «لملوم باشا الباسل» ليقبِّل صغيراته في آخر الحفلات المدرسية ويلملم حقائبهن ليعدن إلى البساط نفسه؛ حيث تجلس «النجدية» في البلكون، فما زال لهن على ضفة خليج منازع أو إقطاع البدوان أرض ومرابط خيل وبيت من الشَّعر[١] في فناء تحيط به حدائق المانجو والبرتقال من كل اتجاه، كانت «هند» من بينهن هي التي تعرف كيف ترتدي السراويل الضيقة، وتضع على رأسها قبعات القش ذات الوردات، ولها صورة كبيرة وهي تلعب في الإسطبل برفقة فتاة سمراء من العبيد الذين يسمونهم «عبيد عيلة منازع»، كان اسمهم كذلك قبل أن يكتشفوا أن هناك أسيادًا أكثر ثراءً فيشحنهم «مبارك العبد» ليعملوا في تلك الأرض البعيدة التي

(١) خيمة بدوية من شعر الضأن.

يخرج منها النفط حيث يجيدون ـ كما هم دائمًا ـ سلخ الضأن وغلي القهوة بالحبَّهان والهيل وتدليك السيقان بالماء الدافئ والريحان الأخضر، هم بارعون في وقد النيران ويعرفون كثيرًا عن الصقور والشواهين، كتنظيف ساق الطيرة حتى لا تُصاب بالبثور، ومكافأة المهرات بقطع السكر، وترويض الكلاب السلوقي، كانوا بارعين تمامًا في تلك الأعمال طالما أن الأسياد بارعون أيضًا في أن يظلوا على سيادتهم، ولا يتهدل لعابهم على أصداغهم وهم يحكون عن أمجادهم بصيغ التذكُّر أو التحسُّر على ما كان، ظل بيت النجدية هو البيت الذي ولدت به، وماتت فيه « هند» ودفنوا في جدرانه أسرارهم.

بيت أبي لم يكن بعيدا، يقف على مرمى البصر من بيت النجدية، أركض عبر ربوات الرمل إلى بيت الجدة النجدية حيث تكون «سهلة» عادة هناك. تترك أبي أمام بيت الشَّعْر يتوسَّد ساق أخته العمة «مِزْنَة»، تمر «سهلة» على مجلسهما وتقول باقتضاب: «رايحة بيت أبويا»، لا يعلق أبي، يدير وجهه إلى العمة مزنة التي تجلس أمامه يقلبان في سير أحد الأجداد الغابرين، أسمعه من بعيد يقول لها: «يا مزون الله يرحم والديك كان جدك الكبير «الشَّافعي» يطوف بالقوافل من سنار إلى قوص وقفط فعيذاب دون أن يجرؤ أحد على حثِّ الرمال في وجوه جماله..»، العمة مزنة هي من بقي له من أخواته الكثيرات على قيد الحياة. كانت تأتي على حمارة بخرجين تُعَبِّئ له فيهما القديد واللبن الخضيض وجميد الجبن المالح لسفراته الطويلة، العمة مزنة هي التي علمتني كيف أقرفص ساقي على البساط، وغزلت لي عرائس من وبر الضأن ورقَّعتها بالأحجبة وحملتني على ساقيها كثيرًا وهي تكركر مقلِّدة ركض الجمال وتهنهن: «ما أنك للي يصيد

عويل ولا أنك ثوبة للرعيان»[1]، لتؤكد لي دائما أنني «ابنة عرب» وأنني فرسة أصيلة، فالجد الأكبر لأبي اسمه «الشافعي السُّلَيْمي» كان كريمًا أكرم من (حاتم الطائي) الذي يحكون عنه في الحواديت، وكان فارسًا يركض حول ربوة يسمونها «العالية»، قالوا إن بها إحدى زوجاته التي أطلق عليها الخرطوش، لأنها قررت هجره، يقولون إن الجد مجنون تمامًا. كان بصحن دار هذا الجد عدة نخلات يجلس تحتها وحينما يمر الناس من على بابه فعلى كل من يركب دابة أن يترجَّل عنها، وأن ينظر في الأرض حينما يمر، وأنه جلد كثيرًا من «الغرابوة» على هذه النخلات؛ لأنهم همج ولا يعرفون تلك الأصول، كما أنه كان يوقد ناره قبل أن تدخل الكهرباء إلى أقطاع البدوان، ثم يركب فرسه ويمر على الأبواب ويسألهم: «نار من هذه ياولد؟!»، وكان نصيب من يجهل نار آل الشافعي أن يجلده على جذع النخل. ثم يعود «الجد» من طوافه بالبلدة ليتصدَّر مجلسه وهو يلعن الزمن الذي لم يعد يعرف للرجل أصل من فصل، وكان الكثير من الصبية يعتقدون أنه مجنون؛ فمازال يتصور أن نيرانه هي التي تبحث عنها القوافل المتعبة ليقريها، بينما كانت العربات التي تجري على الطريق المسفلت تمضي من أمامه طول الوقت، هذا الجد هو الذي أورث أبي بيت الشعر المنصوب في الخلاء، وعددا من كلاب سلوقي وعدة للملفاف[2]، وبعض الفدادين التي قسَّمها بين أولاده الكثيرين. كان حريصًا على أن يجد أحدًا من أولاده يتصدر مجلسه من بعده، وكان

(١) ما أنت صيدة سهلة، ولا غنيمة يغنمها الرعيان.

(٢) صيد الطيور الجارحة.

أبي يعرف كيف يفعل ذلك، رغم أنه تلقى تعليمه في فيكتوريا كولج، وكاد أن ينال ليسانس الأدب الإنجليزي، لكنه كان متيمًا بتلك الجلسة حول النار التي تترك رمادها يسف في الحلوق، فقد كان يقضي معظم وقته في تلك الجلسة. كان هناك إلى جانبه «سرور» و«مبارك العبد» وكثيرون يجدون متعة في تدخين بعض الأشياء النفاذة، وشرب القهوة المذاب فيها الأفيون ومضغ بعض الحكايات عن أحد أفراد الأسرة خصوصًا الجد الأكبر ورحلات قنصه في أرض الهيش والمالح. أو الجد منازع ورحلاته إلى أرض السبخ والسودان، كان أبي يتحدث بطلاقة، ويحفظ أشعار الأقدمين وهو الذي درَّس لي روايات شكسبير بإنجليزية متميزة وصوت متزن ممسرح كان يبهر كل خلجاتي.

لكنه لم يوافق على الإطلاق ـ رغم ثقافته ـ على رغبة أمي في إرسالي لإحدى المدارس الداخلية. قال ببساطة إن تلك المدارس هي التي أفسدت عقل أمك وخالاتك، وهو الذي اقترح تلك الفكرة المضحكة أن أذهب إلى مدرسة رَبْع منازع الابتدائية محمولة على كتف عبدة سمراء كان اسمها «نوار»، كانت تضعني في المقعد الأول من الصف بعد التنبيه بألا يجلس أحد جواري، كان معظم المدرسين ينظرون للمقعد الفارغ ولا يعلقون، وكنت بدوري أنظر إليهم ولا أفهم سوى أنهم مجرد فلاحين، تعرف العمة «مزنة» بالتفصيل كيف تقول: «حبايبنا وطول عمرهم خدامينا»، تقول كلمة خدامينا بتواضع وكأنه شرف كانوا محظوظين به، بعض المدرسين الجدد كانوا ينظرون إلى «نوار» التي تجلس على باب الفصل في انتظار حملي في رحلة العودة بتطفُّل وأحيانًا باستغراب، بل وتجرَّأ أحدهم وأنزلني ذات مرة من شباك الفصل الذي كنت أجلس على إفريزه، أهز ساقي بولهٍ، منخرطة

في غناء أهزوجة العمة مزنة: «عايش في عزه ودلاله، من كتر نياقه وجماله وعنده عزوه من رجاله ما فيهم واحد دلال»[1]. لم أعرف كيف استدار مدرس الألعاب وجذبني من ذراعي، وهو يقول: «فاكرة نفسك في عزبة أبوكِ»، بعدها جاء أبي ووقف في الفناء مؤكدا: طبعا إنها عزبة أبي وجدي، وأن تلك الأرض كانت لأسرتي منذ كانت حمراية تسف الرمال لا يجرؤ على المرور بها عفريت النهار، وأنهم كانوا أسياده حين كان آباؤه يأكلون الخراء في تلك القرى الحقيرة التي كانت تفتك بها المجاعات والتيفوس ولا يتسع النهر لجثث أمثاله، بينما كان جده «منازع» هذا الذي اسمه على المدرسة يركض بفرسه من المشرق إلى المغرب ويخط معالم هذه الأرض المقفرة، المدرس الذي بدا غير متفهم، نصحه بعض أصدقائه بالاعتذار للعائلة، لأنهم «عرب» وطباعهم صعبة، وقد يفعلون أي شيء إذا جرح أحد كرامتهم، لم يقتنع المدرس تمامًا بما قيل وظل يردد بعض الكلمات عن النظام والانضباط حتى احترقت تلك المدرسة الابتدائية التعسة ذات مساء، كان أبي آنذاك يجلس في مضيفته سعيدًا وراضيًا يحتسي مزيدًا من مغلي القهوة ويقلب في الرماد. مشكلة المقعد الأول في الفصل تم حلها بهذا الحريق حيث افترش الجميع الفناء الرملي بلا مقاعد ولا كراسي، وأيضًا كلَّت «نوار» من حملي بعد أن تعلمت الركض ذهابًا وإيابًا خصوصًا أن المدرسة كانت تجاور سور البيت، وتقابل بيوت آخرين قيل لي إنهم أعمام.

كان أبي كريمًا أيضًا مثل جده الأكبر، فقد قرر أن يجلس في

(١) أهزوجة تتحدث عن الأصل الطيب في كثرة الولد وكثرة النوق والجِمال.

المَضْيَفَة ويشعل النار ويسلخ الضأن، يلتف حوله سرور ومبارك وبعض المتحمسين من الشباب يتحدثون دائما حول المشروعات الحضارية التي تحافظ على مكانة العائلة، كان كريمًا للغاية يبيع القراريط من أفدنته بما يتيسر لشاريها، وكان أكثر هؤلاء ممن يطلق عليهم الغرابوه والبراموه، وهم من أطراف الغربية من منطقة تدعى «برما»، ربما يشتهر أهلها بتربية الدواجن وبيع البيض، كان معظمهم نساء قصيرات بيضاوات، يحملن أقفاصًا فوق رءوسهن ويجلسن أمام المضيفة ويقلن: «يا شيخ العرب» بلكنة مضحكة، يفتحن على إثرها مناديل رصصن فيها نقودًا ورقية متسخة يتعبن في عدِّها قبل أن يتفقوا على أقساط طويلة لم تمكنه من إقامة مشروع إحياء تراث العائلة كما خطط له، وكان قد قرر أن يملأ (بالسلالات النقية) المرابط الخالية والتي بقيت ملاصقة للدوار، مجرد صابية خيل فارغة نصفها متهدم، قرر أبي أن يبني بدلا منها مزرعة تليق بتاريخ العائلة، سيبيع مزيدًا من القراريط ليشتري سلالات أكثر أصالة من الخيول، وسيجلس أبي جانب العمة «مِزْنَة» التي تهز شنافها موافقة وهو يختار أسماء جياده ويقول لها: «يامزون جدك الشافعي كانت فرسته اسمها «زاد الركب»؛ كانت شقراء بلون صفار الغلة في الحقول، وكان جدك منازع يقول: لو جُمعت خيل العرب في صعيد وأرسلت واحدًا لكان سابقها أشقر.. الشقرا أصبر يابنت والدي». العمة «مزنة» ستقول له: «إن مهرة جدك منازع كان اسمها الزعفرانة، كانت صغيرة وهي تلعب أمام بيوت الشَّعْر، وكانوا يقولون الزعفرانة في سواد الليل غراء محجلة لكن نسلها قليل»، وسيقضون وقتًا أطول وهم يتجادلون حول الشقراء والدهماء، وسيقضي الأب وقتًا أطول وهو يطوف مع سرور

في العربة (الجيب) اللاندروفر يبحث في ديار قبائل الحويطات وهوارة وجهينة عن مهرات تصلح لحمل نتاج نقي، ويقف أمام كل جواد يبحث عن أنفه الذي يجب أن يكون متسعًا، ويتحرى عن طول العنق وعظم الفخذين وطول القوائم، ويؤكد أن المهر العربي صغير الرأس أكحل العينين، مصرًا على أن يختبر خارطة الأنساب، وأن يتحقق من ذلك بطول العنق، فالفرس الأصيل يشرب دون أن يثني قوائمه، والمهجن يبرك ليطول الماء، وبعد عدة رحلات فشل في اكتشاف خريطة الأنساب هذه، وأدرك أن الكثير من الأنساب قد اختلطت، وسلم واقتنع أن شجرة أنساب المهرة ليست ضرورية، بإمكانه أن يتزود بالفراسة، ويتكهن بأصالة مشترواته بمجرد النظر، فأعاد التشاور مع العمة «مزنة» حول الكُمَيْت والدُّهمْة والشؤم من المهاري، حيث تربعت العمة معلنة أن «الأصبح» الذي في لون الضحى كثير، وأن «الكميت» الضارب إلى الحمرة لا يأتي بنتاج ضخم، وأن عليه أن يبتعد بعد ذلك عن قصر الظهر ويتأكد من طول البطن وتناسق الأعضاء، بعد أن جلب عدة مهاري وأجيرا يسوسها، وتبادل أحاديث طويلة مع كركرة النرجيلة المسائية حول أسمائها «عقاب» و«السمي» و«جناح» و«البلقاء» حيث قلَّب كثيرا بين دفاتر أجداده حول تلك المقولات التي كان يحاول أن تصل أسماع أمي «سهلة بنت منازع» وهي جالسة في شرفتها كقولهم: «إنا لنؤثر الجياد على الأولاد». و«عليكم بالخيل فإنها حصون العرب».

أمي «سهلة» كانت مشغولة بالنسوة اللاتي لا يكففن عن عدِّ النقود الورقية والحديث عن القيراط الفلاني والقيراط العلاني، ونادرا ما تعلِّق، تترك أبي يشارك العمة «مزنة» بيت الشَّعْر وغلي القهوة نهارا، وكركرة

الدخان في المضيفة مساء، رضيت «سهلة» بتفقد بَضْعة زوجها من المهاري صامتة مكتفية بترفُّعها الذي صار يُرى بوضوح يشبه تأملها لأصابعه المرتعشة وهو يصب لها قهوتها في الصباح ويقول ـ ربما مواسيا ـ بيتا ظل يردده حتى حفظته دون أن تدرك معناه:

قد يعسُر المرءُ حينا وهو ذو كرم
وقد يسوم سوام العجز والحمقِ
سيكْثر المالُ يوما بعدَ قِلَّتِه
ويكتسي العود بعد اليبس بالورقِ

تهز «سهلة» رأسها باقتناع أنه مجنون كجده ولا شيء يصلح معه، بعد ذلك صار بيت أبي يستقبل وفودًا من الزوار يأتي بهم «سرور» و«مبارك العبْد»، يقولون «عرب» خليجيين، سعوديين وكوايتة، تتطلب زيارتهم ذبح مزيد من الشياه، وتلميع غرفة الصالون؛ ليتاح لهم تأمل صورة الجد الأول وهو يعلق خرطوشه على كتفه في رحلة قنص، أو تفقد برواز به عَقْد إقطاع لشبه جزيرة سيناء عليه اسم القبيلة التي اندثرت فعليا من الوجود، يتفقد الضيوف مجد العائلة على الحوائط، صورة للملك «سعود» مع مشايخ عربان القطر المصري، ودائرة حمراء حول رأس الجد الشافعي رافعًا جبهته بفخار وسط الصورة، صورة لهذا الجد أو ذاك وهو يهنِّئ مولانا بولي العهد أو عيد الجلوس.. يحب الأب أن يتحدث عن مهاريه كثيرًا ويؤكد أن «الصهباء» أصيلة، وأنه تعب كثيرا في مسألة الأنساب هذه، لكنها بالنسبة للعائلات الأصيلة مسألة محسومة، قد يحكي قصة ارتباطه بأمها «سهلة بنت لملوم باشا منازع» التي كانت له حتى لو

لم يطلبها، سيقول فقط إن ابن العم يُنزل العروس من هودج عرسها بكلمة، سيهزون رءوسهم وهو يؤكد: «نرميها للتمساح ولا يأخذها الفلاح»، حاكيا لهم قصة الجد الشافعي السليمي الذي ألقى ابنته في النهر، سيقول خطبها عباس الأول، سينسى اسمها ويقول إنها كانت مثل الجازية الشريفة بيضاء ولها رقبة ناقة، وأنها كانت بنت عرب ولا تقبل مثل هذا التركي الأحمر حتى ولو كان ابن الذات العلية، سيضطره ترديده مزيدًا من الحكايات لإيقاد النار تلو النار، والقهوة بعد القهوة، وذبح شياه جديدة، واستدعاء «سرور» و«مبارك» و«نوار»، من بيوتهم ليقول إنهم عبيد عيلة منازع، بعد ذلك يستخرج بكارج القهوة الملطخة بالجنزار النحاسي في الصوان لتلميعها، والإصرار على نصب بيت الشَّعر في قلب الفناء، وعادة ما تنتهي هذه الجلسات باستدعاء امرأة من نساء «البراموة» لتعطي أبي عدة جنيهات هي حصيلة اتفاقاته الأخيرة على بيع القيراط هذا أو ذاك.

إلى جوار انشغال أبي ببيع القراريط كان يتابع بشغف قضية المدرسة، فبعد عدة أشهر من احتراق المدرسة تم تجديدها، وإعادة بنائها بعد شراء الأرض المقامة بجانبها لتوسيعها، وبعد كل الإجراءات أزالوا اللافتة القديمة التي كان عليها اسم الجد منازع ووضعوا محلها «مدرسة رفعت عبد الحي الابتدائية الحديثة»، رفع أبي العديد من المذكرات إلى إدارة التربية والتعليم منددًا بالاستهانة بالتراث والأنساب، وتشويه الوقائع التاريخية والتساؤل: أين كان هذا «العبد الحي» حين كانت كل هذه الأرض إقطاعًا من الرمل الجاف توارثه أولاد محجوب الكبير؟! وحين قالوا له إنه كان قائد الحرس الخامس ورجلا من رجالات الثورة عاد إلى البيت وَتَرَسَ

ظهره إلى حائط المضيفة ولم يتكلم، ظل يخط بعود جافٍّ في الرمال بيد مرتعشة.

أصرت « سهلة» بعد تلك الواقعة على مغادرتي لهذه المدرسة نهائيا، حزمت الحقائب وقررتْ مغادرة البلدة إلى شقة قديمة ورثتها من أبيها في منيل الروضة، في البيت القديم ذي النوافذ العالية لعمارات الثلاثينيات عشت مع أمي «سهلة» قبل أن أعرف أنها ليست أمي في الحقيقة، وأن كثيرًا من الأسرار قد تظل مخبأة في حافظات الورق القديم، كانت النجدية قد رحلت ولم يبق شيء لنا هناك كما كانت «سهلة» تردد، تركت للأبي مراقبة سباق المهرات في فناء دُوَّارهم، وتركت للعمة «مزنة» فرصة تجريب وصفاتها في الحجامة وتصليب القوائم وتهدئة المهاري الحارنة بتدليك أنفها بدهن الورد، وتبادل المزيد من الحكايات حول النتاج والتلقيح وفطام «الحولي»، أو الصغير من الجياد.

(٣)

اسمي «مهرة» وأمي التي أعرفها اسمها «سهلة». كبرت في ذلك البيت القديم المطل على النهر، كل ما أملكه الآن بضع صور، جدي لأبي علقوا صورته على أول الحائط كان يدعى «الشافعي» سيقولون لي إنه جاء من مضارب بني سليم، وإننا عرب، عندما حج أبي وجد من يحدثه عن تلك المضارب وقيل له إنهم أصحاب سلالة «الأعوج» من الجياد، والأعوج فرس صغير كانت قائمتاه شديدتَي الطول، وكان يثنيهما في نومته لعظم طولهما، عندما عاد أبي ومعه كومة من المسابح ليوزعها في مجلسه في المضيفة، وهم يقولون له «يا حاج». كان يعدل من وضع عباءته ويتفاخر بمضارب بني سليم لأن في مضاربهم الجياد الأصيلة. يقول:

«ليس في العرب فَحْلٌ أشهر اسمًا ولا أكثر نسلًا ولا أنجب نجلًا ولا أجرى في أشعارهم منه»، يقولون: من يا شيخ العرب؟! يبتسم بحبور ويقول: الأعوج فرس بني سليم. استولدوه لفرس النعمان بن المنذر الذي كان اسمه «اليَحْمُوم»، وأمه من مهرة ركبها رسول الله

في بدر يقال لها «السَّمَى»، يهزون رءوسهم ويتفقدون مربطنا الخالي بعيونهم، ويتحدثون عن إحياء التراث البدوي بعقد صابية[1] كبيرة تتسابق فيها المهارى وتتبعها كلاب السلوقي.

وعندما تاهت بنا عربة أبي في أول مرة نجرِّب فيها مصيف «مطروح»، نزل أبي من العربة أمام مضارب بعض البدوان. كان جالسًا أمامها كهل يصحن البن، بعد أن افترش أبي المجلس وقال له أبي متقربًا إنه سليمي؛ من بني سليم شقيق هلال، حكى له الشيخ أن بني سليم كانوا هنا بمريوط، وتلك الأصقاع القريبة بعد أن عادوا من الجبل الأخضر، وأن بني هلال طاردوهم حتى عبروا النهر وشرَّقوا، ثم أجلاهم محمد علي إلى الجنوب، فكفى أبي قهوته وظل يصحِّح واقعة الهجج هذه من الغرب إلى الشرق إلى الجنوب، وانتهى به الأمر أن أخرج مسدسه من جرابه وقال إن بني هلال «بعر المطايا» كانوا يتسولون من بلد إلى بلد، ولولا سيف بنى سليم ما جرءوا أن يُغرِّبوا ولا استطاعوا أن يقفوا للزناتي خليفة. وظلت المعركة قائمة أكثر من ساعتين بين سليم وهلال على شَفَتيْ أبي، وذلك الشيخ الذي هشَّنا كما يهش أغنامه، وكانت النتيجة أن ظللنا لأكثر من ثلاث ساعات ندور بالعربة ولا نعرف كيف نخرج من تلك الأرض الهيش المفخَّخة بملاحات واسعة، ونباتات برية، وأحراش، بعدها صحراء قاحلة، لم يخرجنا منها سوى بعض الرعيان عثرنا عليهم أخيرا، بعدها قرر أبي عبور الجبل الأخضر بعربة «فولكس واجن» ليقابل الكثيرين الذين حدَّثوه عن سليم وهلال ونزاعهما الطويل حول بئر يقال لها «بئر

(١) الصابية: ساحة سباق الخيل أو الرقص.

هديوه»، أبي الذي انشغل طوال الرحلة بتقصِّي أخبار هذا النزاع، عاد جامعًا أشعارًا كثيرة أطلق عليها «ديوان الشعر النبطي في أقوال شاعر بني سليم في واقعة الإفك المبين». يجلس أبي مع العمة مزنة في بيت الشَّعر ولا يكِل من المفاخرة بأنسابه التي لا يتذكرها أحد ويؤكد لي كلما ضمني في عباءته أنني بنت شيخ العربان، أحاول فهم تلك العبارة وأفشل كل مرة لأنها صارت بلا معنى، بل صارت تثير الرثاء.

جدي لأمي صورته بجانب الصورة الأولى ولكن بإطار أكثر فخامة، كان أخا لجدي لأبي، وعلى الرغم من أن أمي وأبي أبناء عمومة، ولكني كثيرا ما شهدت معارك حامية بين الإطارين، فأمي تعتز بأن أباها قد أخذ الباشوية بينما ظل جدي لأبي راعيا للجمال بكعبين مشقَّقَيْن يسكن بيت الشَّعر ويوقد ناره راكضًا بكلابه السلوقي سائلًا الرائح والغادي: «نار من هذه ياولد؟!»، ولم تحو تركته نظارة سَبَق مكبّرة، ولا على ساعة من الذهب بسلسلة إيطالية من جاتينيو.

جدي لأمي كان يجلس في تراس بيته الذي بناه بالآجر وسقفه بالخشب والمرائن وطوَّقه بأدغال من الزهور والأشجار وأبراج الحمام، وحف ممشاه بأشجار البوانسيانا والجازورينا، كان اسمه «لملوم» ولا أعرف لماذا يضيفون لقب «الباسل» ليقترن دائما باسمه قبل أن يسبقه لقب «الباشا» ويذيّل بأنه «آل منازع». كان لملوم باشا يجلس دائما في تلك الشرفة، ويدخن نرجيلته وتحت قدميه يجلس على البساط شيخ كبير يدعى «أبو شريك العيادي»، كان دليلًا لقوافل منازع الكبير، ومعه يجلس رجل آخر يسمى «مبارك العبد» يقال إنه من عبيد العائلة حتى بعد انتهاء العبودية، في غرفة الاستقبال كانت

هناك تلك الصورة التي ظَلَلْتُ أحدق فيها، ثلاث فتيات بشرائط ملونة، بزي مدرسي موحَّد، وكان هناك «ولد صغير» يقف منفردا يداعب عرف مهرة صغيرة، أعرف أنه خالي وأن اسمه «نافذ»، لكنني لم أره أبدا. لم تكن «للنجدية» صور لكنني كنت أتذكرها تجلس في البهو على سجادة كبيرة وتربع ساقيها وسط الوسائد، وتنادي على خادمة صغيرة لتناولها علبة الدواء، علبة الدواء كان بها مرآة كبيرة، وقلم تخط به حواجبها وزجاجة عطر سماوية زرقاء كنت أجمع فوارغها. كان اسمها «لسوار»، تلوك النجدية في فمها دائما اللبان المر والمستكة وبضع حبات من القرنفل، ومن تحت غطاء رأسها كان شعر ناعم له لون الحناء يغطي طرف حاجبها ممسوكا بمحبس أسفل جفنها.

تاريخ عائلة أمي سيشهد تحولاته الكبرى في تلك البلكون، كان «جدي» الباشا يتابع باهتمام كبير النشرات عبر المذياع، يتحدثون في المذياع عن التصحيح الثوري والإصلاح الزراعي. كان ذلك في رأي الجد «كلام فارغ» يصدر من الغوغاء، ظل يعتقد ذلك لمدة قصيرة، بعدها دخل من البوابة ثلاثون رجلًا، قال الغفير أبو شريك ليحدد هويتهم: «غرابوه»، انقضُّوا بسرعة على حدائق العنب والتمر البغدادي وأشجار السرو والحور والكستناء التي جلبها الجد من سفراته، وركضوا خلف الطواويس الملونة والغزالات في الحظائر، وامتطى أحدهم ظهر الزرافة التي كان الباشا قد جلبها من إحدى رحلاته في دارفور.

كانت الغرف المسيَّجة بالسلك والتي تحرسها الكلاب قد نُهبت تماما قبل أن يفيق «مبارك العبد» ويطلق من خرطوشه بضع رصاصات

طائشة، أبو شريك ظل يطارد الصبية بعصاه ويركض وراءهم وهم يقتحمون مشتل الورد النادر، وعبقات الياسمين قبل أن يجلس جوار الحائط يولول: «الناس اللي تنفع وتضر، غابوا وراحوا يادنيا وين؟!»، ويحلف برأس الجد منازع الذي كان يخيف الضواري في أرض الهيش إنه سيؤدب الغرابوة الفلاحين؛ دود الأرض. الباشا الذي كان قد صمم هذا البيت ليصلح لاستقبال «مولانا» إذا رغب في الخروج للقنص، وليصلح لحياة بناته الأميرات الثلاث، ولتبق هذه السراية دليلا على المجد الأسري، هز ساقه بألم على المقعد وهو يشاهد حالة النهب دون أن يبدي أي فزع، دخل بعد ذلك غرفة الضيوف وأغلق الأبواب بإحكام، وأمام صورة الجد منازع جلس يتأمل خريطة الإقطاع الممتد على حواف النهر إلى الأرض البور، الإقطاع الذي وهبه مولانا للقبيلة، لكي يؤمِّنوا سير القوافل من بركة الحاج على أطراف القاهرة حتى غزة شمالا، أو القصير والقلزم جنوبا من بعض القبائل التي تنتهب كل من يمر بالقرب من وادي القباب على أطراف جبل الطور، فرمان وكالة حراسة القوافل النيلية مازال على جدار غرفة الصالون الفخم الذي استقبل فيه سعد باشا، ومولانا المعظَّم، والبارون إمبان، والأمير عبد المحسن، والأمير فيصل آل سعود، حيث تدارسوا صلات النسب القوية بين قبائل «شُمَّر» وقبائل عنزة، وقبائل بني سليم، كانت هناك صور كثيرة تغمر الجدران. ظلت الصور على الجدران وراح كل شيء كانت صورة هند وهي على فَخْذَيْ مربيتها وحولها سهلة وسقاوة أيضا هناك تجاور لوحة ضخمة لرسام قالوا إنه هولندي، وأحيانا فرنسي كان اسمه «بييركام» رسم في اللوحة جلسة سمر بدوية، ترقص فيها الحجالة مغطية وجهها

ببرقع، وصف من الرجال يصفقون لها، وهوادج على جمال قافلة تبدو خلف الصفوف بعيدة، بجانب اللوحة كانت أيضا صورة رجل العائلة المقدس، في الصورة كان واقفا يدلل مهرته، هذا الرجل المبتسم في الصور القديمة اسمه «نافذ»، أعرف أنه الخال البعيد الذي أرسله الجد ليتلقى علوم المحاماة في باريس، لكنه أرسل إليهم صورة عرسه من نيوجرسي مع بطاقات التهنئة، وصورة لزوجته اللبنانية التي افتتح معها محطة للبنزين، بعد عدة سنوات تقاضى بتوكيل بيع كل ما ورثه من أبيه، وكل عدة سنوات يرسل إلى أمي بعض الصور، كان آخرها لابنته التي اسمها «صوفي» محدثا أمي عن أنه يناديها «هند» لأن المرحومة تأتيه كثيرا، وأنه لا يستطيع أن ينسى أنه تسبب في كل ذلك. أمي التي اكتفت بالصمت لم تعلق على أسئلتي عند تلك الجملة الأخيرة، أطبقت الرسائل وتنهدت وبقيت «هند» تأتيني في هيئتها الجديدة لتداعب شعري وتموء.

البيت الذي كبرت فيه كان في منيل الروضة، كان الزجاج الأغبش يكشف النهر من جانب ويكشف شارعا ضيقا مليئا بالمحلات والضوضاء. أجلس طوال الوقت بجانب سهلة في الفراندة، أراقب حركة القوارب منهمكة، تلمِّع الصور التي رفعتها عن الحوائط القديمة، تحب سهلة هذا التابلوه «رقصة البدو»، تجلس في مواجهته كأنه يردها إلى أماكن بعيدة، في التابلوه الغامض ترقص فيه امرأة ملثَّمة وخلفها صف طويل من الرجال يصفقون برتابة، في التابلوه أيضا ظل رجل يخرج من الإطار ليتغنَّى بمحاسن المرأة المنتقبة التي تروح وتجيء أمام الرجال كأنها طيف، وحين تفيق من شرودها أمام اللوحة ربما تتحدث عن بيع حديقة الموالح السنوي وأسعار

المانجو والبرتقال، تجلس «سهلة» في الغالب صامتة ولا تخرج، مشغولة دائما بالذي تركته خلفها؛ بيت النجدية، وحديقة المانجو، والمحامي وقضاياها مع الإصلاح الزراعي، فقد تحولت أرض أبيها بعد أن تم تقسيمها على الفلاحين إلى مستعمرة كبيرة، يقطنها أكثر من مئتي أسرة، ورغم قضايا بطلان الملكية واسترداد الأرض، فقد كان من الاستحالة إخراج من باعوا واشتروا وتوارثوا. لم تكف أمي «سهلة» عن متابعة القضايا التي وجدت فيها معنى من معاني استرداد كل الذي أُخذ منها عنوة، انشغل أبي أيضا ببيع آخر قراريطه، وكتابة المناشدات وتصميم مشروعاته لحفظ تاريخ القبيلة. بل في إحدى المرات كتب مذكرة مطولة إلى مولانا الملك فيصل بن آل سعود يطالبه فيها بحقه في آبار النفط، وأكد له أن قبيلة بني سليم التي وقفت بجانب إخوانها من شُمَّر وعنزة قبل الخير حين كانت الجزيرة تنتظر محمل الحجاج، وأنها فتحت مراعيها لإخوانهم عبر أكثر من قرن، آن لها أن تعود إلى مضاربها في نجد، وأن يُعْمل حسابهم في الخير الذي عمَّ وفاض، وأنه يملك أكثر من مستند يؤكد أصوله الحجازية إلى جانب عدة عقود للتحالف في السَّراء والضراء وقَّعها سعود الكبير أو نوري بن شعلان شيخ مشايخ قبائل الرولة التي تسكن شمال الحجاز حتى نهر الأردن، وألحقها بعدة صور باهتة لجدَّيْهِ الشافعي ومنازع وهما يلاحقان الغزالات في منطقة العلاقي والقلزم. ومرابط خيل وعبيد يحملون على سواعدهم الطيور الجارحة وتحت أقدامهم رماد القهوة ليثبت بذلك أصالته، ثم ذيَّل تلك العريضة بحوالي ألفي توقيع لأفراد العائلة الأحياء والأموات، لكنه رغم ذلك لم يتلق ردا عليها.

ظل أبي يروح ويجيء من السفارة إلى الخارجية مقدما مذكرة

مماثلة، مستأذنا السلطات في الهجرة أو عودة القبيلة إلى ديارها القديمة في نجد. ثم اكتشف بعد عدة أشهر استحالة ما يطلب وأن أحدًا لن يلتفت إليه، جلس في بيت الشعر وفرك أصابعه التي صارت أكثر توترا، بجانبه جلست العمة «مزنة» تؤازره وهي تبط له خبز الشعير على الرماد وتحدثه عن عزه ودلاله، وتحكي له أن جده الشافعي كان يصهل بفرسه من العلواية حتى أرض السبخ والسودان، ولا يستطيع أحد أن يقف بوجهه، وأن الأيام دول وعليه أن ينحني للريح. أبي الذي كان يتمتم بأبيات الشعر فاركا مسبحته:

ولم أر مثل الهم ضَاجَعَهُ الفتى
ولا كسواد الليل أخفق طالبه

يتنهد عميقا وهو يراقب قراريطه التي حوطها البراموة والغرابوة وأولاد مِزينة وآخرون، تغيرت خرائط الإقطاع بعد أن حوط السكان الجدد بيوتهم بأسوار طينية وبنوا فيها تلك الدور الطينية الواطئة، وشقوا بين أبوابها المداخل والشوارع. ظل أبي يطوف بين تلك المداخل الضيقة تائها، يتفقد شجرة كافور، كان قد زرعها في أحراش أرضه، أو يطوف بتوتة خليج الشافعي وهم يخبطون في جذعها، ليستكملوا امتداد الشارع الرئيسي الذي يصل هذه البنايات بالأرض المسفلتة، لكنه لم يستطع أن يغفر لهم إزالة اليافطة التي كان مكتوبًا عليها «رِبْع منازع» وتحويل اسم المنطقة إلى «عزبة التل». لم تستطع عمتي «مزنة» أن تخفف عنه، تجلس بجواره محاولة اختراق الصمت الذي حل به، حاكية له مجرودة الشافعي الذي كان يملأ الأرض قبل أن يلقوا به في جوال في النهر، خاتمة حكايتها «بأن الأيام دول

وأن المعدن الشريف مثل الذهب في المراود إن أراد رب العباد له ينكسر..ينصهر وينصاغ ضيغة جديدة»، كان أبي يهز رأسه مستندا على عمود بيت الشَّعر وهي تحدثه عن المهاري التي ربطها في دوار البيت وعن كونها لم تخصب بعد، ولم تنتج سوى تلك المهرة الصغيرة التي لم يخترلها اسما، يبتسم أبي لأنه كان يعتقد أن مشروع الخيل قد يهبه ما ضاع من بين يديه من مجد. لكن رغم كل الجهود التي بذلتها العمة «مزنة» في متابعة مسألة النتاج والتلقيح ووصفات الخصاب، لم تنجح جهودهما في استيلاد سرب من الخيول من مهاريه، وتوصَّلا في النهاية، وهما جالسان على فرو الضأن في وسط الدوار أن الخيل مثل النساء، ومثل الدور الجديدة، فيها الشؤم وقدم الخير، ويبدو أن كل الذي اشتراه أبي لم يجلب له الخير الذي ينتظره، خصوصًا وأن سماسرة الخيل الذين يأتي بهم «سرور العبد» ليتفقدوا المرابط وهم يهفون بعقالهم ذات اليمين وذات اليسار لم يشتروا شيئا، كانوا يتحدثون عن المراعي الألمانية، والمزارع البلجيكية، وكاتلوج جياد العائلة المالكة البريطانية، ومزادات الخيل في أكسفورد ولندن، بالتأكيد كانوا يروْن مُهرات أبي لا تستحق عناء المشاهدة، ثم يكتفون بالاندهاش لأن هناك قبائل عربية مازالت تحتفظ بأنسابها وسلالات خيولها في هذا الوادي. أبي الذي كان مستعدا بصوره ومستنداته وبكارج القهوة وعريضة المطالبة بالعودة إلى الأراضي الحجازية. لم يجد أبي من يستجيب لهذه القرابة سوى هذا الذي يلقبونه بالأمير «لُبَدْ». سيأخذ الأمير أبي من على فراء الضأن بجوار مرابطه الخالية ليشاركه رحلات قنصه وملفافه باعتباره «بركة» أو خبيرا في صيد الجوارح، ربما أحب الأمير صحبة

أبي؛ ولهذا اصطحبه معه في رحلات طويلة.في الرحلات الطويلة سافرا إلى جبال الألب ليصطادا الشواهين البيضاء من جبال سنقار في أوزبكستان أو تركستان وأحيانا أطراف كندا وأستراليا، أبي الذي سره كثيرا ركوب الطائرات، كان يملك مهارة في احتساء القهوة، وتقليب النار، وله عينان صغيرتان حادتا الإبصار وقادرتان على معرفة الطيرة وعمرها وأصالتها من النظرة الأولى، بل إنه بدا خبيرا في كل الجوارح والصقور ومواسمها وأقطارها، كان لأبي خبرة أيضا في جبر الريش إذا انكسر للطيرة واحدة أو أكثر، يستطلع أرض الملفاف ببصره الحاد ليتحاشى أثر الهوام. تؤكد العمة مزنة أن أبي خبير بكل شيء، وتؤكد أنه قد جاس أرضًا كثيرة، وباع قراريط أكثر، ليركب عربة مصفحة جيب قديمة، ويركب معه بعض العبيد من وادي النطرون والعلمين إلى وادي الريان وبحيرة قارون، وأنه في شبابه قضى أياما طويلة يطارد فرخات القش والطرشون منتظرا أن يسقط في ملفافه عدة شواهين ليعيد بها أمجاده بعد بيعها بعدة آلاف، ولم تسقط في ملفافه سوى الحبارى والجرابيع.لكنه الآن يجوب الأرض مع الأمير «لُبَدْ». تؤكد العمة «مزنة» أن الله جبره وعوضه، فصيد الجوارح مع الأمير في تلك السفرات ليس شركا بائسًا على ظهر حمامة ـ قد يقع عليها طائر ما يحلق كفريسة ويسقط مخلبه في لفافة الشرك فيركضون نحوه ليطوقوه بعباءتهم ـ بل معركة بهيجة يطاردون فيها الطيور باللاسلكي والبنادق الآلية ويحدِّدُون مواقعها بالرادار؛ لذلك اكتفى أبي بالتعامل مع الموقف ليس باعتباره صَقَّارًا بل «خبير جوارح» يفرك مسبحته ويقول إن الأبيض من الطير يسر العين، والأسود شرس، والأحمر صَيُودٌ، والأخضر في الشواهين

هو أردأ الأنواع، والنداوي يصلح للقنص[1]، وقد يحكي لهم عن الجد منازع الذي اصطاد القرود والنعامات من أرض السودان، أو أنه كان للجد الشافعي صقر سنقاري عمَّر معه عشر سنوات كان يسميه «القنوع»، يكفون قهوتهم وهو يتأمل القاعة التي ملأها الأمير «لبد» بكل الجوارح على اختلاف ألوانها وترك لعبيده مهمة مَلْء حواصلها بالطيور الصغيرة وتنظيف مخالبها وتدريبها على مطاردة الغزالات.

بعد أن عاد أبي من سفراته الطويلة علَّق على بابه لافتة باسم الشيخ «مطلق الشافعي السليمي» خبير خيول وصقور، وطبع عدة كروت ليعطيها «مبارك» لضيوفه الذين يأتون إلى صَيْد الغزلان من وادي العلاقي بعد أن نصب وتدا وعلق في طرفه فرخة ريش وبعض حباري وحمامات برية في قفص، وصار يتحدث أكثر عما يليق باسم العائلة، وعن مشروعات إعادة أمجادها؛ كالتفكير في عقد مجلس دائم لها، وأيضا التفكير في إنشاء جريدة باسم القبيلة يكون شعارها «البداوة أصل الحضارة».

(١) القنص: صيد الغزلان.

(٤)

جدي لأمي وأبي ليس له صورة، كان اسمه «يونس»، ولد هذا الجد في بر الشام بعد الهجج. لا أعرف ما هو الهجج، يقولون إن مولانا قد طرد القبيلة كلها خارج الديار المصرية. يقول أبي استنجدنا بالشريف عبد الله، وتقول أمي بل بنوري ابن شعلان سيد قبائل الرولة، سيحكون أن الهجج كان بسبب رغبة الوالي في الزواج من إحدى بناتهم، ويحوكون حول ذلك الحكايات وحاكوا عنها المجاريد. تهدهدني العمة «مزنة» على وركيها وهي تهزج بها بأغنية عن شرف العائلة:

ما أنك للي يصيد عويل
ولا أنك ثوبة للرعيان
أنتي سلالة من حرّ لسيد
جداد منسَّب للشجعان[١]

(١) أنت لستِ صيدة ولا غنيمة للرعيان، أنت من سلالة حرة وأجدادك أنسابهم للشجعان.

كانوا قد ألقوا بها في النهر للتمساح حتى تظل مهرة أصيلة ولا يمتطيها فلاح، حتى ولو كان «عباس الأول» ابن مولانا المعظَّم، يقول أحد أعمامي: كانت كتائب عباس تركض وراءنا بالهجن وقد شردنا بالنساء في الصحراء حتى وصلنا إلى الخان، عمة أبي التي لا أعرف اسمها ستقول إن هذا الجد الذي هج بنا كان اسمه يونس، وإن الوالي أرسل وراءه من طعنه في ظهره عند الخان وهو ابن عم شقيق له هو الذي طعنه في ظهره، فسموا ذلك الموضع «خان يونس»؛ أي المكان الذي تمت فيه خيانة يونس، وأنه فعل ذلك ليتولى مشيخة قبائل العربان.

«يونس» هو الذي أقسم مع «منصور المزيني» شيخ قبائل «مزينة» على أخوَّة الدم في بر الشام، فظلوا عُقُودًا يستبدلون الزيتون والزيت وقطع الصابون الحلبي بحرير ودبيق وشعير أرض القبط، ويقال إنه بسبب أخوة الدم هذه قام استضاف الجد قبائل «مزينة» في دواره حين هجُّوا من اليهود وقالوا: «نحن أصحاب عهد يا شيخ العرب»، نصب الجد خيامهم قرب مضيفته ولما ضاقت بهم، بنوا بيوتًا طينية وأحواشا في ربع منازع. ظلت جمال الشوام تروح وتجيء في قوافل الحجيج ومواسم الحصاد ورحلات التجار.

حين تمر العمة فاطمة المزينيَّة على مجلس أبي تقول العمة مزنة «الضيفة»، الضيفة قالت، الضيفة راحت، الضيفة قعدت، وما عادوا ضيوفا، صاروا جيراننا، حين ندق السامر لكف العرب تأتي العمة فاطمة لتضرب بالعلم[1] وتهزج:

---

(١) نوع من الغناء البدوي.

عذرا منسوبة وتخيل
تخف الشايب والشبان
وعيونك جوز غداريات
يهودي صابغهن بألوان[1]

وحين يلطخن وجوههن بالنيلة في الموت تأتي العمة فاطمة ومعها أخواتها لينقرن طبول الحداد وتنوحن مع جداتي:

بوابته يام السبع علامات
حيغلقوكِ اليوم بالضلفات

تأتي العمة «فاطمة» لتصحن الكحل الحجري والشبَّة والمستكة، وتتحدث عن ديار عنزة، وأرض مزينة، ومرابع الحويطات وتختم الحكايا بأن تقول: «الله يرحم ناسنا وناسك كانوا جَوَاد وأهل مروءة».

العمة فاطمة كانت صديقة الجدة النجدية وهي الوحيدة التي شهدت عرسها، تقول إن النجدية جاءت من كفر الزيات على هودج وقافلة من الجمال كابنة عرب حقيقية، أطلقوا لمقدمها الخرطوش طوال سبعة أيام، اكتشفت النسوة أن بنت النجديين الأشراف ابنة حضر، وتعرف كيف تخطُّ حَاجِبَيْها بالقلم الأسود، وتسف النشوق من منخار حاد طويل، ولها عينان مكحولتان بالإغواء. كان لملوم باشا فخوًرا بامرأته، فرغم أنها مهرة أصيلة، لكنها لم ترتدِ البراقع السُّود، وتخرج من غطاء رأسها خصلة الشعر الناعمة وتعلق على مفرق جبهتها التعاليق المذهبة كأميرة تركية، وتعرف كيف تصنع

(١) عذرا: عذراء. منسوبة: لها نسب كريم. تخف: تسبي العقل. غداريات: آنية مستديرة.

«أبرمة الحمام» و«الترلي»، وتحشو الضأن بالزعتر والفستق، وفي صينية القلل الفخارية تضع أوراق الكافور، وتذيب في الماء رائحة الورد المقطرة، وتدس بين الملابس أوراق الحناء.

كل ذلك كان مبهِّرا وسط البيوت الطينية الواسعة التي ما زالت تفت دقيق الذرة في اللبن الرائب، وتسكب عليه العسل الأسود كقمة ما يعرفون في فنون الطبخ، ولم يكن سوى الضأن وفتيت الخبز للضيوف وأهل المربع، «النجدية» التي وجدت في الجدة «فاطمة» الاهتمامات نفسها، تشاركا معا في تعبئة عصائر المانجو بعد تسكيرها وإغلاقها بالشمع، وعمل مربى اللارنج التي يتحاكى بها النجع كله، العمة «فاطمة المزينية» هي التي تفرك «للنجدية» ظهرها بمفروك الكافور وزيت الزيتون وتعالج كل الأوجاع تقريبا؛ لذلك ارتبط اسمها باسم «سقاوة» تلك الخالة التي تقف عن يمين انشراح في الصورة «ممتلئة» أطول قليلًا من سهلة، أقل جمالًا من «هند» وأكثر من «سهلة»، لم يقولوا على «سقاوة» مسكينة رغم أنها رحلت أسرع وعاشت سنوات طويلة، تسقط باردة الأطراف متقلصة الملامح رغم أنهم علقوا لها حجر الياقوت عند مفرق رأسها ليذهب وجع الرأس وألبسوها الحرير الأخضر كي يهدأ بالها وتذهب الأرواح الشريرة، وبحثت النجدية في كل النجوع، لتجد حجر «الدر» الذي يسكن القلب، ودقوا لها سمكة خضراء على صدغها بالوشم، وشرَّطوا أعلى حاجبها، لكن «سقاوة» التي تتحول من قطة وادعة إلى جريدة مطروحة على الأرض فاقدة للحياة، كانت لا تفارقها تلك التشنجات ظلت تسقط مرة بعد أخرى، ورغم أنهم حرَّموا عليها دخول المطابخ والتحرك وحدها فقد سقطت ذات مرة على حديد الفراش ومرة على

قصعة النار، ثم أخرى على صوان البكارج قبل أن تسقط سقطتها الأخيرة فوق عمود البلكون الذي يشبه القلة الفخارية. تحلقوا حولها، كان الدم ينزف والكلوب الذي في سقف البلكون تحط عليه فراشات كثيرة وتطير، وبأجنحة لها رائحة شواء الضأن.

العمة «فاطمة» هي التي تعرف تفاصيل الحكاية التي أخفوها بعد موت «سقاوة»، ربما كانت جالسة مع «النجدية» حين سمعت صوت الباشا يقول إنه مجرد كلب، وكانت «سقاوة» ممددة بسيقان بيضاء وملقاة على الأرض، وكانت عينا «سهم» توغلان في ثنايا الثوب الذي انكشف لسيدته، «سهم» الذي كانت «انشراح» تلقمه أحد ثدييها وتلقم الخال «نافذ» الشق الآخر، و«النجدية» تقول إن لبن العبيد يصلب حيل الرجل، على عكس البنت التي لا ينبغي أن ترضع أبدا من عبدة. «سهم» الذي كان يركض كجرو مع الصغيرات اللاتي في الصورة، حين كانت أكوام القطن تُعَبَّأ في أكياس ضخمة وترص في فناء بيت «النجدية»، وهم يتحدثون عن أسعاره، كان الصغار يقفزون جميعا من فوقها، وكانت ساقا «سهم» النحيلتان تنقران مثل قرود الأرض السبخة، وحين يلعبون لعبة الاختباء كان دائما يأتي بسقاوة من مكامنها، وحين تتدحرج بين الأجولة مختفية يمسكها من ضفيرتها، هذا قبل أن يكبر ويقول لكل الصغيرات «يابنت سيدي» ويخفض عينيه قبل أن يمر بهن.

ولكن «سهم» ظل رغم ذلك يروح ويجيء بين الفناءين، فناء البيت وفناء المضيفة أو مجلس الرجال، يدخل ويخرج من قاعة المطابخ يحمل بكارج القهوة وآنية الطعام على رسغه، ويمسك

لـ« نافذ» مهرته حين يمتطيها ولا يظهر في الصور، وحين أسأل عن شكله سيقولون باختصار «عبد» من عبيد عيلة منازع، ربما له ملامح «انشراح» أمه أو «نَوَار» أخته، أو ملامح أخرى لا يحبون تذكرها، يقولون إن له اسمًا آخر لكن الباشا هو الذي أطلق عليه «سهم»، لأنه كان يستعيض به عن كلاب السلوقي في رحلات صيده، يركض وراء الطيرة التي يسقطها الخرطوش، ويأتي بها قبل أن تسقط على الأرض. «فاطمة» المزينية ستقول إنه كان جاثيا فوق «سقاوة» حين انتزعه الباشا، كان يبكي ويقبِّل ساقيها اللتين انكشفتا معتقدا أنها ماتت، وعلى الرغم من أن «سقاوة» كانت غائبة عن الوعي تماما ويحدث كثيرًا أن تتصلب وتقع وتصبح في برودة قطعة معدن، فإن الباشا رفعه باتجاه الفراغ قبل أن تلتهمه النيران ويعم البيت رائحة الضأن التي تشتعل على الخوازيق.

ظلت العمة «فاطمة» تأتي وتجلس بجوار «النجدية»، تروح وتجيء، تسحق البن والهيل والحبهان، مر زمن طويل، صارت العمة «فاطمة» لا تغادر بيتها ولا تجيء لتقول لأمي «الله يرحم الغاليين»، وصار أبناؤها الكثيرون إذا مررت عليهم لا يعرفونني وكنت أمر فقط على بيتها فأراها محنية بثوب مطرز، وفي وسطها نطاق أحمر، وفي سيالتها مفروك المريمية، وصارت تتسند على عصا غليظة، وحين أمرُّ ستتطلع بعينيها الضيقتين منادية على قفزات قدمي: «يا بنت شيخ العرب يا أم الحرير مقصَّب»، «يا بنت شيخ العرب يام الضفير معطَّر».

أنظر إليها و«نَوَار» التي كفت عن حملي وصارت تسير جانبي

تاركة لخطواتي أن تسبقها قليلًا من باب الاحتشام، هي التي تقودني لأسلم على «ريحة الغاليين». كانت «النجدية» قد ماتت ولا أعرف، هل كانت «هند» في البيت المظلم أم لحقت بها؟!

بعد عدة سنوات أخرى كانت البيوت الطينية المتلاصقة لآل مزينة قد تحولت إلى مبانٍ مصبوبة بالأسمنت والحديد، وتحت منها بعض دكاكين للبقالة والخردوات، وصرت إذا مررت لا يناديني أحد. فقط أشم رائحة المريمية المفروكة، وَحَبَّ الهيل لم تعد فى سيَّالتها، وأترحَّم على العمة فاطمة.

(٥)

«انشراح» التي في صورة «هند» بثوب قصير وبنطال منفوش، سمراء، عفية ولها صوت فشلت «النجدية» أن تجعله أقل ضجة، يقولون إن الجد منازع اشترى أمها من مكان يدعى «ود مدني»، كان ذلك عندما كان عائدا مع قوافل الصمغ وريش النعام والأخشاب المعطرة. كانت القوافل التي تمشي جِمالها معقوف على متنها ذلك الحبل الطويل الذي يمسك رسغها صف أطول من الرجال والنساء والصبايا مضطرين لاستكمال المشي بأقدام متعبة متورمة تحت شمس حادة ورمال ليس عليها أثر شيء سوى هياكل جمال وضباع وبشر نفقوا في رحلة ما في الطريق، وكلما توقفوا في محطة، كان عليهم أن يتخفَّفوا من حمولتهم حتى تصل إلى البحر بخسائر أقل، عارضين البضاعة بأسعار بَخْسَةٍ، الجد منازع التقط الكثيرين وأسكنهم في ربعه؛ أسفل التلة العالية، وسماهم الناس عبيد عيلة منازع. «انشراح» التي تسكن هناك حيث بنى «مبارك العبد» الآن دواره، وصار له مضيفة واسعة وعربة لاندروفر وحول بكارج القهوة تتحلق دائرة من الضيوف يقول بفخر: «كوايتة»، «سعوديون» يترجلون

بعدها في عربات أكثر فخامة ليلاحقوا غزالات «أيلة» و«العلاقي» في رحلات قنص يصبح فيها عبيد عيلة منازع أدلَّاء مخلصين، لا تستطيع العمة «مزنة» إذا مرت هناك أن تتحدث بجرأة أكثر عن «حبايبنا وخدامينا» مع أنهم ما زالوا يقفون لمرآها، وحين تمد يدها فسيأتون واحدًا بعد آخر لتقبيلها، ويقولون لها كما كانوا دائما: «يابنت سيدي».

«انشراح» التي تسكن هناك الآن، وإذا مررت عليها لن تعرفني، لا تريد أن تتذكر أحدًا؛ لأنها لم تعد تتذكر أحدًا ولا حتى أحفادها الذين يلعبون حول البيت. من يوم أن أخرجوها من البيت المظلم كانت عيناها المليئتان بهذا النعاس والاحمرار كليلتين تماما وغير قادرتين على التحديق سوى بهذه الإغماضة، الأطفال الذين ينادونها ياجدّة سينظرون لمهرة بحذر وهي تعبر الطريق الترابي خلف التلال الخفيضة. يقولون إنها كانت تحزم وسطها بهذا النطاق المتسخ الذي تربط فيه مفاتيح الغلال وغرف القدور والخزين تفتح صدرها لتظهر عَظْمة ناتئة لتكشف نحولها على تلك العظام البارزة. «الشناف» المعلق في الأنف أخذ من لحمته الكثير وتدلى فربطته من الجانبين بخيط يرفع فردتيْ حلق أكثر ثقلًا تركا شقًّا واسعًا في موضع القرط، تعلق الخيط الذي يرفع الثقل عن الأذنين فوق رأسها من تحت الغطاء سيبرز الخيط المعلق بالدبابيس الملونة، تظل تروح وتجيء محدثةً بخلخالها الكبير تلك الضجة مع شخشخة المفاتيح وصوتها الهادر في الخادمات آمرة ناهية. تركت لها «النجدية» عدَّ أجولة الطحين، ومراقبة نظافة الحجرات وتجهيز حوائج المطابخ، فهي التي تراقب البيض الذي فقس، والبطات التي يجب ملء حواصلها بالحبِّ، والبهائم التي جف ضرعها أو امتلأ،

تكتفي انشراح بأن تجلس تحت قدميْ سيدتها وهي تدلكها بزيت الخردل والماء الدافئ وتقول: «ياستنا.. عبأنا زلعة سمن» و«ياستنا فتحنا زلعة جبن»، و«ياستنا كم كيلة سنعجن الليلة؟».

«انشراح» هذه هي التي كان عليها حمل ذهب النجدية بعيدا عن أعين العسكر الذين هبطوا، وفي أيديهم قائمة الأسماء، التي كانت أرض الباشا تتحول بها إلى إقطاعات صغيرة لا تتجاوز الفدَّانين، يبنون حولها الأسوار ويشقون بينها قنوات السقي، وثمة عسكر آخرون كانوا يحمِّلون المهرات والنوق والنعامات والغزالات الصغيرة من الدوار، مقسمين أرضا كان يطلق عليها «إقطاع البدوان» إلى رقعة شطرنج، تاركين حديقة آل الباسل خالية تماما بلا جوارح أو مهرات أو غزالات مسيجة في الأقفاص، النجدية التي جمعت كل ما على صدور بناتها من حُلي وكرادين ذهب، وخلاخيل مجدولة، ونبائل وصدريات من الذهب، وصرَّتها في ثوب خلق، وربطتها حول وسط انشراح لتجلس هناك على خليج منازع أسفل أثلة فردتْ فروعها المائلة على الخليج، بعد أن حمَّلتها بصغيرتها «نوار» إمعانا في التضليل، ومن وسط خرق الصغيرة كانت جنيهات ذهبية مدسوسة في اللفائف على حجر عبدة تهزج وهي تحمل صغيرتها، سيقولون للنجدية كل مرة: «العبد يبيعك كما تبيعه»، لكن انشراح كانت تعود كل مساء محمَّلة ببضاعتها لم ينقص منها شيء، وظلت تفعل ذلك كل مرة كلما عبرت مصفحة هنا أو هناك.

«انشراح» هذه التي كان يسمع صوتها من ثاني دوَّار وكان لحركتها العنيفة في البيت هذا الضجيج لم تعد تتكلم على الإطلاق، قالوا

السكتة وقالوا الحزن، حدث ذلك على فترات طويلة، كانت رائحة النار التي أمسكت بتلابيب «سهم» لتحترق معه المضيفة بأكملها قد وصلتها متأخرة ولم يفسروا لها كيف أبقت النار على ساقين مُقَيَّدتَيْن، في جثة محترقة، وكيف حدث هذا، ظلت تدب من غرف الخبيز إلى قاعة القدور إلى صالة الغلال لكنها لم تتكلم حتى عقفوا «هند» من ساقيها وأوثقوها في الفراش، قالت: «أنا مع بنت سيدي حتى يئون الأوان».

ثم حملتها إلى المبنى الذي في آخر ممشى الحديقة محفوفًا بأشجار ليمون وأبراج حمام قديمة ومهدَّمة، يتجمع فيها الكثير من النفايات والقش وبقايا فراش قديم كنت أستطيع التكهُّن بما فيه، كان بيتا قديما من غرفتين بالطين والتبن وقاعة في وسط سقفها فتحة دائرية بين ألواح الخشب، من الفتحة كانوا يدلون سِلال الطعام وبعض الاحتياجات الأخرى.

«انشراح» التي في الصورة تحمل «هند» على حجرها ظلت تعتني بـ«هند» بعد أن ألقوا بها في البيت المغلق، ولم يرها أحد إلا حينما فتحوا الباب لغسل جسد المرحومة. تجلس «انشراح» في وسط القاعة التي تتوسط البيت المغلق تحت كوة الضوء المنسكبة من السقف، كان هناك مضخة ماء تجلس تحمم تحتها «هند» كل مرة يتلوث ثوبها بالبول أو البراز، تدق «انشراح» المضخة ليغمر الجسد الماء الذي يستكين ويتكوَّر في بؤس. الماء الذي ينسكب على الأرض يخرج من مجرى تحت تجويف الحائط إلى الخارج، حيث ينصرف تحت أشجار الليمون. من فتحة السقف كان يمكن

لهما فقط التكهُّن بأول النهار وآخره ومواقيت إزهار البرتقال وطنين البعوض صيفًا وانسكاب المطر على السقف ورائحة الماء الراكد تحت الأشجار. الغرف التي أغلقوا نوافذها بالطمي والقش صارت مصمتة لا يُسمَع منها شيء ولا يدخل إليها شيء، ضوء النهار وحده هو الذي كان يدخل من فتحة السقف، وكان بأعلى كل غرفة كوة صغيرة تجاور مرائن الخشب في السَّقف تجدد بعض الهواء لكنها لا تدخل شيئا، تقرفص هند على الفراش وتظل عيناها باتجاه الكوة التي عرفتها الفئران والقطط والعصافير الصغيرة وبعض الخفافيش والعناكب، بعد أن بكت«هند» وانخرطت كثيرًا في النهنهة والصياح ونبش الحوائط بأظافرها. كانت يد «انشراح» العفية تمسك بها في تلك النوبات حتى تمر ثم تضع رأسها على حجرها وهي تتلو الرقَى والتعاويذ وتعيد تضفير خصلات الشعر التي كانت مثل «سلاسل الذهب» كما تقول «النجدية» في ضفيرة طويلة، بعد مدة استكانت للصمت من جديد والذهول عن نفسها.

«انشراح» قالت إن «هند» في الآونة الأخيرة كانت مثل النسمة بعد أن كفت عن لطم خديها وخبط رأسها في الجدار، كانت تنهمك فقط في مراقبة الخارج بكل حواسها، تتلصص على الحوائط لتتسمَّع صوت صحن البن الذي كان يأتيها عبر دقات لها إيقاع ثابت تتشمَّم رائحة الضأن التي تشوى في مكان ما، محدِّثة نفسها أحيانًا أنهم الآن في المطابخ يوقدون النار تحت الأواني الضخمة، وأن النجدية ما زالت تُخَبِّئُ في صدرها علبة النشوق، تراقب من فتحة السقف «نقرات الظباء» وهي تدخل نجمات قليلة متناثرة تركض في السماء، تعرف بمرورها على هذا الموقع أن سنة جديدة عبرت، وهي ما تزال

تتحسس الجدران وتتسمَّع ضجة ما، مواء قِطّ، رفرفة أجنحة طير على الأشجار، حفيفًا خريفيًّا تسقط له أوراق جديدة، لم تستطع أن ترى تجاعيد وجهها ولا الشعر الأبيض الذي غزا فجأة مفرقها، حين تأخذها «انشراح» على ساقها وتضفره وهي تهزج لها:

«الصبر ما قَضَى حاجات ملِّيت، والرجا بابه قَفَلْ»[1].

كانت«هند» تشعر أكثر بهذا الضيق الذي يعيدها إلى دوامة البكاء ثم تعود لتصبح ساهمة شاردة تلاحق أشياء مجهولة في العتمة، متأكدة أن الرجاء بابه مغلق مثل الحوائط المصمتة، وحتى لو خرجت فإن ثمة عزلة أحكمت سياجها ولم يعد إلا التحديق في الفراغ، لم يعرفوا هل كانت تعرف أن لها طفلة صغيرة تجلس باستكانة على حجر «سهلة»، هل أطلقت روحها لتتفقدها، سيقولون إنهم رأوها تفتل العجين معهم وإنهم تطلعوا حولهم فماءت قطة ما وخرجت شاردة، بعضهم كان يراها دائما كما كانت؛ تُسَوِّي الفراش في الغرف، أو تشرب من الماء المعطَّر في طرف التراس ثم تتمسَّح في قدميْ سهلة وتخرج تموء وتخدش في البسط المفروشة، ورغم أنهم كانوا يتهامسون عن أرواح الأحياء والموتى فقد تحاشوا جميعا أن يذكروها، وأن يذهبوا إليها ولو عبر هذه الطاقة الصغيرة في وسط السقف، لأن ذلك فيما يبدو كان سيقلِّب عليهم المواجع، كانوا يكتفون بسؤال «نوار»: «أمك حلوة يابنت؟» ولم يسألوا عن «هند» أبدا، وكان يكفيهم أن تطأطئ «نوار» رأسها ليطمئنوا.

---

(١) صبرت حتى مللت، ولم يَقْض الصبر لي شيئا، والرجاء بابه مغلق.

الظلام الذي تحدق فيه هذا لم يعد يخيفها، ولا نباح الكلاب في الحقول البعيدة. تقرفص في الضوء الشحيح أو العتمة، وتكوم حبات الرمل على أرض الغرف التي لم يصقلوها بالخشب؛ تركوها بطميها لتنبشه بأظافرها محدثة خطوطا طولية وتقاطعات شبيهة على الجدران التي كانت بلا طلاء أيضا ولا صقل، كانت طَمْيًا ينفرط منه الرمل إذا حكَّته، وتصنع منه معسكرات النمل ثكنات تمرق بين جحورها هنا وهناك، لم تحاول عدّ الأيام ولا صنع العلامات، «انشراح» هي التي استطاعت أن تضع علامات مؤكدة للساعة والفصول بالنجوم التي تعبر على فتحة السقف ورائحة زهر البرتقال إذا أزهر، ربما انتظرت «هند» الموت لكنها لم تحاول الحصول عليه، كانت قد فقدت قدرتها على فعل أي شيء سوى التحديق، لم تحاول الهرب أيضا، كانت مستسلمة تماما محنية على كومة رمل أو متطلعة باتجاه كوة أو مقرفصة تحت السماء الضنينة، تعبر السماء من فتحة السقف تاركة للندى الليلي جسدها محاولة استنشاق شيء غير هذا الهواء الراكد ورائحة الماء العطن تحت المضخة، الدمامل التي غزت ساقيها من تلك القرفصة فشلت «انشراح» في علاجها بقشر البصل والرماد، وكان كل يوم تتفتح بثور جديدة ويسيل منها القيح، وثمة سعال مبحوح صار يلازمها، سيقولون مسكينة وهم يتطلعون إلى جسدها ويسكبون الماء الأخير لغسل موتها، لم تر ابنتها «الصغيرة» التي تركض في بيت لملوم باشا مرة واحدة، ربما لأنها لن تتذكر أن لها ابنة.في وحدتها كانت « هند» تضع رأسها على الجدار، تتسمَّع الحوائط الصماء، لم يكن يأتيها سوى ضجة بعيدة، تحاول تفسيرها، لكنها لم تعرف أن تلك الضجة عرس امرأة ذات شعر قصير يشبه في

تجاعيده شعر ليلى مراد أو أسمهان، وبأنف طويل تدعى «سهلة». كانوا يخيطون لها فستانًا بديكولتيه مفتوح وعقد من اللؤلؤ لتذهب إلى البيت نفسه الذي خرجت منه «هند». لأن لملوم باشا سيقول وسط نهنهة ابنته الصغرى «سهلة»: «أنفك منك ولو كان أجدع.. والبنت لابن عمها ولو تخلع عينها، وبنت العرب مثل الناقة الطوع مطرح ما تعقلها[1] تبرك، ومطرح ما تسيَّرها تسير».

مضت «سهلة» حاملة معها طفلة رضيعة كبرت ولم تعرف أن المرأة التي يقولون عنها مسكينة هي أمي، كان طرف الخيط في يدي صورا غائمة أحاول استكمال تفاصيله، وكأن ثمة طريقًا كان عليَّ أن أتعقبه، ومصيرًا مماثلا مجبرة على تكراره، كانت « هند» تأتيني كثيرا تحدثني عن إغلاق النوافذ على الماضي، أعرف الآن أن الصندوق المليء بالحكايات مخبأ في صور قديمة، وكنت مُصرَّة على فهم ما جرى في البيت المغلق الذي سكنته انشراح وماتت فيه هند وورثته وحدي.

(١) مطرح: مكان. تعقلها: تربطها.

(٦)

الإطار الذي كان مُذَهبا أصبح بلون الرمال باهتا، ومتناسبا أكثر مع فضاء اللوحة التي رسمها رسام أجنبي وظلَّت أمي تحملها من بيت «النجدية» إلى بيت أبيها ثم إلى بيت منيل الروضة، متخيرة لها في كل مرة موقعا عموديا على مجلسها حيث تسرح في شرود أبدي، تسقط عيناها على صفوف الرجال، والحجالة تتمايل أمامهم راقصة، والقافلة البعيدة تبدو في أفق سرابيّ محير، اعتقدت في البداية أنه يخصُّ «سهلة»، يقولون إن ثمة شابًّا نحيلًا سكن المضيفة لعدة أشهر، رسم تلك اللوحة «رقصة البدو» كان يسمي نفسه «سليمان». كان يجلس مع الباشا على البساط في ليالٍ صيفية كثيرة، يتحدث فيها عن أرض الحبشة وبلقيس وسليمان الذي كان يسمع أسراب النمل وهي تتخاطب تحت قَدَمَيْه، وعن نسله في بلاد الحبشة، لملوم باشا الذي كان بين كل مقطع ومقطع من الحكاية يؤكد أن الجد منازع كان أحد المكتشفين الكبار لمصبِّ النهر، وأنه يتفهم تماما ما يقول، لكن بلقيس ملكة سبأ كانت تسكن اليمن لا الحبشة، هو لا يستطيع أن يتخلى عن هذا الاعتقاد. كان «سليمان» ـ أو بيير كما وقَّع لوحته ـ ينخرط في

الرسم غالقا عليه الباب متطوحا وسط ألوانه حتى يحل المساء؛ حينها يلبس كما يلبسون الثوب الأبيض والعقال والعمامة الشفافة، فيبدو بياضه الرائق رغم كثرة مواضع البثور في بشرته. ويحتسي معهم القهوة متحدثا عن نظريته في التناسخ، مؤمنا أن دورة لا تنتهي للأرواح تسكن ظل إنسان، فرع شجرة، جسد قطة، كان قد أيقن أن انشغاله بالبدوان جزء من روحه، فقد تكون روحه؛ قد تلبَّسَتْ جسد مهرة عربية قبل أن تحل في جسد قرد استوائيّ ثم استقرت لدى جسده ريثما تتحول مرة أخرى إلى أجساد كائنات لا يعرفها، الباشا كان يعتبره ـ بالطبع ـ مجنونا، كانوا قد عرفوا مجانين كثيرين مثله مروا هنا أو هناك، التقى بهم الجد هذا أو ذاك وهم يبحثون عن الذهب في «تلال اللقايا»، أو الزمرد في جبال البَجَة، يتذكرون ذلك الذي لبس قفطان العربان وظل يجول من رَبْع إلى رَبْع، جاء مع بونابرت، وكان مثل سليمان يصف مجالسهم في لوحات ضخمة، وينام في الخلاء معهم على وبر النوق وجلود الضأن، كان اسمه «دينون» يشارك محجوب الكبير أو يونس رحلات كثيرة بحثا عن أشياء جديدة ليرسمها كالفلاحات أمام أفران الخبيز واحتفالات الأعراس والطهور والموالد.

كانوا يمرون كثيرا، هذا قبل أن يبني الجد منازع هذه المضيفة التي صممها البارون «إمبان» نفسه، كان يقنص معهم وَيجيء كثيرا إلى حيث يرقد السمَّان في بحيرة قارون أو يبحث مع رفيقه «دورفتِّي» في «كوم أوشيم» أو «نزلة النصارى» عن مومياوات جديدة، بعدها اعتادا أن يجيئا إلى حيث الجد منازع جاهز لترحال في طرق لم يعرفها أحد قبله، قرر أن يبني «المضيفة» التي ليست بيتا من الشَّعر ولا حجرة من الطين المعبأة بالدخان، بل بيت عالٍ كما يحب أن

يسكن الإنجليز، حجرات مسقوفة بالأخشاب على جدرانها مرايا تكمل نصف الحوائط، ستائر من الحرير والجبردين السميك لتخفف الضوء، سلالم عالية بإطار من الحديد المطروق، قاعة من البُسُط الأعجمية والوسائد المطرَّزة والمباخر، نوافذ مسيَّجة بالأسلاك خوفا من البعوض والهوام، خزانات ملابس مسيَّجة بالخشب، بلكون واسع يشرف على مرابط الخيل من جهة، وحدائق الموالح من جهة أخرى، أمام المبنى سيترك مساحة شاسعة من الرمال لتحط ركائب الهجن والقوافل المسلحة بالعسكر حاملة رحالة وهواة صيد وعابرين لهم هيبتهم مثل البارون إمبان أو مولانا دليسبس، أو صديق العربان السيد المهيب دورفيتي، بعد ذلك ستصبح هذه المضيفة هي الطراز المعماري الذي يختاره الباشا بقاعاتٍ وغرف أكثر لتليق بضيوفه.

«بيير» الذي سمى نفسه سليمان سيعتز كثيرا بأنه سكن المكان نفسه الذي سكنه «دورفيتي»، كان يقول عليه «مكتشفا» بصيغة تحوي الكثير من الفخر. الباشا سيقول إنه مثل أجداده المكتشفين أيضا، كانوا يمتطون خيولهم ويركضون في رحلات قنص طويلة حضر مولانا إحداها، يصلون بعد أيام إلى قوص أو الريان أو قارون أو جبال الزمرد، حيث يرون قطعان الغزلان والحمير الوحشية والظباء تسير آمنة، يطاردونها فتركض تاركة على الرمال آثارها نقشا يقتفونه حتى صخور وديان الحصى حيث تضيع القطعان تاركة صغارها للقنَّاصين بينما تختبئ بين الصخور الجبلية متأملة مصير الصغار التي تحيط بها كلاب السلوقي من كل الاتجاهات.

سيعجب الباشا بالشاب الذي يسمي نفسه «سليمان»، وسيقضيان

الوقت يتحدثان عن قصة الرحالة «دورفيتي» الذي جاء إلى الجد منازع باحثا عن زوج من الجياد الأصيلة ليرسلها إلى ڤيينَّا، وزوج من الصقور المدربة على اقتناص الغزالات، سيحكي الباشا كيف رافق رحلة دورفيتي إلى سنار وجبال الكبابيش ثم بربر وشندي وهو يبحث عن زوج من الظباء لإمبراطور النمسا أو ريش نعام يصلح لدوقة بروڤانس أو حشرات استوائية لمتحف الأحياء في لندن أو زرافة لإثراء مجموعات الحيوانات البرية الملكية في باريس، بينما كان الجد يبحث عن «مسيل الذهب»، ذلك الماء المترب الذي تلمع فيه حصوات متكلِّسة يكتشفون بعد إذابة القشرة أنه ذهبٌ حقيقي في شكل حصى، ليس مهمًّا ما كان يبحث عنه الجد لأن كليهما سيبحثان كثيرا ويعودان إلى تلك المضيفة حيث يفترشون في النهاية مضيفة آل منازع المسوَّرة آنذاك بسور ضخم مثل القلاع. في تلك كانت المضيفة تكشف البيت لأنها تجاوره؛ لذلك قرر الجد أن يزرع أشجار الكافور وَالعَبَل العالية الملساء لأنها تستر وليس لها أفرع تصلح للتسلق، كي تظل العزلة مبسوطة تماما بين تلك المضيفة والبيت الذي يجاورها. وعلى الرغم من السور الضخم لكن الباشا كان قلقا دائما وحريصا أن يظل كلا العالمين المتجاورين لا يتلاقيان بشكل أو بآخر. عاش «بيير» الذي سمى نفسه سليمان في تلك المضيفة يمزج ألوانه. لم يكن يعرف أن هناك في طرف السور وفي الجانب المتاخم للمطابخ وأفران الخبيز جانب من السور قد تهدم قليلًا بفعل تسلُّق الخادمات وهن يتلصصن على البساط الأحمر الذي يفرش للغرباء، تتسلقه البنات الثلاث أيضا ليراقبن الغرباء، خاصة حين تحلق طائرة هليكوبتر حاملة معها بارودا وخرطوشًا ووجوهًا حمراء لا تزيدها الشمس والركض في الأودية

الجافة سوى ذلك الاحمرار، من فوق هذا الحائط نصف المتهدم كان الولد الذي صار أبي يطارد الخادمات الصغيرات ويلهث وراء صدر «فرحانة»، أو يطارد «روضة» في حظائر البهائم وعلى أكوام القش، وكن يتناقلن ذلك بينهن، وربما سمعته «هند» ليلًا وهن يتهامسن عن البكارة ومحارم ليلة العرس، «انشراح» التي لا تترك غرفة الكانون ليلة الخميس حيث يتحمَّمن ورائحة النار والماء الجاهز وصوت المضخَّة وتعليق الغيارات على فروع شجرة التوت، والجلوس على القش لتمشيط الشَّعْر. كان يعرف موعده ويترقبه وينتظر فوق السور ثم يقفز وينقض مع خشخشة الماء على الجسد العاري أو على ظهر التي تفرك قدمها فوق حوض الماء في غفلة انشراح التي يهاجمها النعاس وهي ترفع رأسها محدثة الخادمات الصغيرات «يلَّا يا عروسة منك إلها رقبتي اتعوجت.. صبِّي يابنت الميَّه وقومي الله يقطع سنينكم».

وكان الولد الذي يتلصص علي الأجساد العارية يعود مثلما أتى من على طرف السور، حيث تَرَكَتْ قدماه المتشعلقتان آثارا جعلت من المسألة أكثر سهولة كل مرة وبشكل لا يلحظه أحد، من هنا كان يمكن التكهن أن «هند» قد فعلت ذلك أيضا؛ تسلقت السور، لكن بالاتجاه المعاكس، عبرت إلى الشاب النحيف الذي كان يسمي نفسه سليمان الذي سكن المضيفة، وكان يقضي نهاره يحكي للباشا عن القرود وعبيد أرض السودان، ويقف في الليل بصدر عارٍ في البلكون وهو يدخن ويرسم صورا لا يراها أحد.

«سهم» الذي كان يتحرك بين العالميْن من المضيفة إلى البيت والعكس، هو الذي سيقول للنجدية إن «بيير» يرسم عبيدا مكومين

عرايا في مركب يقول إنه شاهدهم في مكان يدعى «هرر»، يرسم سماء معبأة بطيور اللقلق وصحراء عليها هياكل عظمية لجمال نافقة وعدة صقور تطير في أقدامها الخيط الذي تجذبه الجوارح في محاولة مستميتة للفكاك من الشرك، رسم عدة مهرات مستكينة في مربطها كان لإحداها عَيْنَا «هند»، لم يقل «سهم» إنه رأى تلك الصورة التي كانت فيها «هند» مُمَدَّدة عارية تماما. الذين يعرفون جسد «هند» كانشراح لن تقول إن الحسنة التي بين ثديي البنت في اللوحة كانت لهند فعلًا واحدة مثلها، وذلك الصدر الذي يشبه وردات قرمزية ناعمة كان أيضا لها، في اللوحة فقط كان لها حِجْل فضي كَحِجْل انشراح ولكنه معقود بسلسلة غليظة تسلسل قدميها، وعلى ضفيرتها الطويلة كان عقد فل ينحني من الجبهة حتى طرف الضفيرة، وكانت نصف مغمضة وبين فخذيها رسم غَبَشْ قط بري ووجه مماثل لقط تماما لكنه يبدو كموضع حرمتها، تلك اللوحات لم يرها سوى «سهم»، قالت انشراح لابنها «سهم»: «حط مداسك في فمك دي بنت سيدك»، وأقنعته أن النساء يتشابهن.

ذلك القط الذي رسمه « بيير» بلون الرماد في اللوحة كنت أشاهده بعد ذلك يموء ويخدش البُسُط ولا يعرفون كيف يدخل من الأبواب المغلقة وكيف يغافل الجميع ويخرج. أعرف الآن كيف تكون له عينا «هند» واستكانتها، وأيضا ذلك النزق الذي تتحرك به. الذين يعرفون «هند» سيقولون إنها كانت تدير الأسطوانة لتتعلم الرقص الإيقاعي، وتجلس وحدها محاولة تقليد صوت فتحية أحمد، وتتلو مقاطع من «ماجدولين» بصوت مؤثر تحت أشجار الحديقة قبل أن يلمحها أخوها الذي يقطن الآن في نيوجرسي ويمزِّق الرواية التي

استعارتها من مس «إنجيل» ابنة ناظر المدرسة ويلطمها على وجهها فينزف أنفها، ولم تكف هند بعدها عن لضم عقود الفل من الحديقة، وهي تغني «رق الحبيب».

رحل «بيير» الذي كان يسمي نفسه «سليمان» فجأة، قال سهم إنه أحرق كل لوحاته، بكت «هند» تحت أشجار المانجو ولم يكن صعبا أن يربطوا بكاءها برحيله، شهدوا أيضا حول رقبة «هند» سيرا من جلد الزراف مُعَلَّقًا فيه قطعة بيضاوية مثقوبة من منتصفها بشكل دائري، لها شكل عين من العاج ستظل حول رقبتها ولن ينزعها أحد سوى انشراح بعد أن تسكب الماء على جسدها والعطور ويلحفوها بالمناشف ويقولون مسكينة. «انشراح» التي كانت تؤمن بكل التعاويذ السحرية قالت إن الزرافة تتنبأ بالغيب، وكل الكاهنات في أديس أبابا وسنار يضعون سُيورًا من جلدها لتحمل التمائم والأحجبة، وقالت إن العاج تميمة سحرية أيضا فهو جماد ميت يخرج من لحم حي، وإن العين حارسة، وعين العاج تحرس المومياوات والأجساد الهالكة في المقابر القديمة، «انشراح» التي تفسر التعليقة بأنها تميمة لديمومة المحبة حتى الموت، ستعطيهابعد موت «هند» إلى «سهلة» وهي بدورها ستضعها في حافظة قديمة مع صور أخرى وأوراق وقصاصات من رواية «ماجدولين» الممزقة، في تلك الحافظة التي ورثتها كل ما بقي من «هند» التي يقفون أمام صورتها ويقولون مسكينة.

بعد عدة أشهر من رحيل «بيير» قال الباشا للمرة الأولى: «أنفك منك ولو كان أجدع»، والنجدية تقول له: البنت لا تريده. الذين يعرفون «هند» سيحكون أنها بكت كثيرا وهي تسمع عن ملاحقته

لفرحانة وغيرها في الحظائر، وما يروونه عن فاطمة القرومية التي تنام في حجره، لكن الباشا سيقول: «ابن عمها وهو أولى» وكفاية فضائح، تخشى النجدية الفضائح وتخشى هذه النظرة الحاسمة التي تحمل التهديد. استسلمت هند لطقوس العرس، خاطت لها مدام «كريستينا» ثوبًا منفوشًا بجيبونة، وأحضروا لها زجاجة لاڤندر أو لسوار وحذاء بكعب مسمار وسارت وسط الكلوبات التي حملها العبيد وصواني الحناء التي أحاطوها بالشموع وداروا بها دورتين في الأحواش والدواوير المتاخمة لأعمام أو عمات، وكانت الحجَّالة ترقص في الأرض المنبسطة أمام المضيفة والتي تهبط فيها الطائرات، والرجل الذي يخرج من الصف الذي يصفق تَصْفيقًا رتيبًا ينحني أمامها بتوسل، وهو يتغزل في الرقبة الطويلة كناقة الجمل والكعبين اللذين يضويان كمنارة، وبرق الشناف المعلق في الأنف مثل هلال قمري:

كعوبك شمعات منارة
يضون في دكان نصارى[1]
ضي جبينك بان شعيله
خدك وشنافك تمثيله
كيف هلال اتناشر ليلة
اتلاقى هو والفجرية[2]

والرجال الذين انتشوا بوجه لم تظهر منه سوى عين واحدة، وخصر يميل على الهازج بالأشعار في تلاحق وطراد بين صدها

(١) يُضون: يُضِئْنَ.
(٢) ضوء جبينك ظهر ومن تحته الخد والشناف المعَلَّق مثل هلال تلاقى مع ضوء الفجر.

له بالعصا وميلها تارة عليه متحننة تماما مثلما رسم « بيير» رقصة البدو، رقص الجميع مبتهجين في صابية العرس. جلست النجدية وضيفاتها يتحدثن عن عمار البيوت وبنات العرب وسترة البنات بينما انشغلت الفتيات بصابية العرس المنصوبة في خلاء المضيفة، يتلصصن على الرقص من خلف الجدار المتهدم الذي تعرفون الآن قصته. في الصباح حملوا «هند» على هودج مثل أمها وجدتها رغم أن الباشا كان لديه عربة؛ فإنَّ البيت الجديد لا يفصل بينه وبين بيت النجدية سوى دوار واسع وسور، مشوا وراء هودجها مكملين التصفيق الرتيب والأهازيج الغزلية حتى وصلوا إلى هناك، حيث أعدوا لها غرفة مسقوفة بالخشب، والمرايا ومفرش لمنامها بلون ورق الكرنب وكلّه باللون نفسه، بينما ملأت النجدية أدراج المرآة والخزانات بالشبَّة ومسحوق القرنفل ودهن الورد وورق النعناع والكافور والمستكة المفروكة في أوعية خشبية وإلى جانبه زيوت ذات روائح نفَّاذة نصحوها بتدليك الأماكن الحساسة بها، وتدليك شفتيها أيضا وألا يخلو ريقها من المستكة واللبان المر، سيتركون «هند» وحدها مع فاطمة القرومية، ومع أنهن جميعا كن يعرفن حكاية تلك القرومية كما يعرفها معظم الرجال، قد تحكي النجدية أن تلك المرأة قد جاءت إلى إقطاع البدوان وعلى يدها طفلة منذ سنين عديدة، كانت وما زالت بيضاء وسمينة، لها ذلك الامتلاء المتناسق، وسيذكرون أن لها أزواجا كثيرين، كان آخرهم ذلك الرجل النحيل القميء الذي كان يعمل على ماكينة الطحين، يدلق الحبَّ في فتحة الماكينة، ويقف أمام السير الكهربائي أو أسفله حيث يتجمَّع غبار الدقيق المطحون حيث تنحني كل امرأة لتجمع طحينها منكفئة على

الأرض ينشغل هو بمراقبة طُرحَهن وهي تنحل وفتحات صدورهن تتلألأ عليها قطرات العرق. لفاطمة القرومية أثواب دائما مفتوحة الصدر تكشف عن ثراء فاحش يعلو صدرها عقد من حبات مسبحة رخيصة بلون الزمرد يتمازج مع لون قرمزي داكن لفم مرسوم وأسنان مصفرة قليلًا لكنها تثير الشهوة، سيعجبه المشهد بالتأكيد، ويتزوجها، لكنه كان يعرف مثل الجميع أنها تنام مع من تحب. كانت القرومية مع سيرتها المتداولة تدخل كل البيوت في ليالي الأفراح، يحتاجون معونتها حين يتعرى جسد العروس لتزيل عنه الزغب، وتدق مسحوق الشبَّة والمستكة تحت الإبطين وتشاهد الأماكن المحرَّمة، وهي تنتفها لتصير مثل جلد الأطفال ناعمة وملساء، تحف الحواجب بالخيط، وتكيس الجسد، بعدها تتعرف الملابس الداخلية للعروس مبدية رأيها في هذا القميص أو ذاك، معطية نصائح عن فرد قَصَّة الشَّعر أو ضمه بالمحابس، أو فرده بالزيوت والدهن. البيوت الأكثر تحفظا كانت تكتفي بمشاهدتها وهي تجلب معها قمصانًا للنوم من الستان الأحمر، وتأخذ رأيها في بعض الأمور كحشو حمالة الصدر بالقطن، وشد البطن بالأحزمة خصوصًا بعد الولادات، النساء الأكبر سنا سيسألنها عن أشياء أخرى مثل النوم على هذا الجنب أو ذاك، رفع الساقين وإطلاق الأصوات الأكثر غنجا، ولا تكف القرومية هي عن فرك الدخان، ولف السجائر والغمز بحاجبيها. تضحك تلك الضحكة المبحوحة وتصف بيديها تلك الحركات البذيئة.

قبلت النجدية رأس «هند» في ليلة عرسها وكانت بالتأكيد تعرف أنها ستتركها لتلك القرومية، كان وجه «هند» شاحبا على الرغم من أنهم وضعوا شعرها الطويل بوكليت فوق الطرحة التل، ووضعوا

كثيرا من المساحيق المبهجة على وجهها، وتركوا تحت قدميها أوراق الكافور والريحان كي تصبح حياتها الجديدة خضراء معطرة، انسحبن من الغرفة وتركنها لفاطمة القرومية لتحمل لها الكلوب وتعلقه فوق رأسها تم تضع رأس هند فوق حجرها ممسكة ساعديها بقوة بينما تلف رِجْلَيْها لتباعد بين ساقيها لتترك له المجال ليضرب ضربتين فَتَسْقُط قطرات قرمزية على المفرش الذي كان له لون الكرنب، وتكتم «هند» صرختها. بعدها ستخرجان معًا وتتركانها تبتلع نحيبها وهي تسمع ضحكات فاطمة القرومية وتشم دخانها البعيد.

في الشرفة المسيجة بإطار من الخشب والحديد، ولها باب مفتوح على غرفة الضيوف وباب للبيت، ونافذة غرفة نومها، الشرفة المستطيلة المصقولة بأرضية غامقة بلون التراب، ربما كان لها آنذاك لون آخر ثم انطفأ، كانت «هند» تقف متطلعة إلى الكلوبات المعلقة في شجرة توت ضخمة لتنير الفناء، تستطيع أن ترى منها أنوار بيت النجدية، وأنت تتكهن بهيئة الخارج والداخل وتتوقع موقع النجدية وهي جالسة في الشرفة تسف النشوق من منخاريْها وتعطس آمرة الخادمات بأن يحملوا برام الأرز أو فطائر القشدة إلى ابنتها التي صارت ملك رجل آخر. بين البيتين تقف للطيور وفراغ ومبانٍ طينية قديمة وصمت ليليّ، من المؤكد أن «هند» وقفت طويلًا منتظرة أن يعود أبي من بيت فاطمة القرومية، في الليل كان يستند على الحوائط ولثوبه رائحة الدخان، ولفمه تلك الروائح الغريبة لأفيون أو حشيش أو أشياء أخرى لا تعرفها، وربما انتظرته كثيرا بتلك المساحيق التي ملأوا بها أدراجها، لكن المؤكد أن الخادمات كن يقلن لها بوضوح إن زوجها مازال ينام في بيت «فاطمة القرومية» التي تسببه عقله بالدخان

وبجسدها الرخو العارف بشهوات الرجال. صارت «هند» لا تكف عن البكاء، بل يقولون إنها مشت ليلًا إلى بيت النجدية وهي تحلِّفها برحمة الغاليين ألا تتركها تعود لهذا الرجل، وأقسمت إنها ستعيش خادمة في بيت أبيها فقط ألا يردوها إليه، وإنها ربما تموت لو أصروا على عودتها. «النجدية» التي وبَّختها وقالت: «دلع بنات»، وحدَّثتها أن المرأة عليها كل شيء، وعليها أن تحاول معه أكثر؛ لأن كل الرجال يصيبهم الطيش في البداية ثم يعودون إلى عقولهم.

عادت هند إلى الشرفة تتكئ على وحدتها، تواجه الندى الليلي بمزيد من الدموع، تحول بكاؤها إلى صمت مطلق ثم إلى نوبات من النهنهة، ثم سهمت بنظرة محايدة لعدة أيام تاركة البول والبراز على ثوبها رافضة أية وسيلة لتنظيفها أو إطعامها، حملوها بعد تلك العوارض إلى بيت النجدية مستندة على الخادمات. سكبت النجدية على رأسها الماء البارد وشدتها من ضفيرتها لتفيق من ذهولها وتقول: «امشي مشي أهلك ولو انكسر ظهرك، ستعودين ستعودين، تطلعي تنزلي ستعودين، ابن عمك وستطلع روحك من بيته»، «هند» التي نظرت إليها وأجهشت في بكاء مرير مشت وحدها عائدة إلى بيت زوجها مع عدد من أقفاص المانجو والذبائح وقطع الصابون، بعد أن أطلقوا البخور في كل مكان ورشوا الرشوش وتأملوا صلاح حالها.

صارت « هند» أكثر ذهولا، تخرج بالليل عارية تماما وتقف في الفضاء مذهولة وحينما تفيق من ذهولها لا تتذكر ذلك، ذات ليلة مشت حتَّى بيت النجدية بهذه الهيئة ووقفت أمام «لملوم باشا» الذي فتح الباب لطرقها المتواصل ثم صرخ مناديا عليهن ليلقين عليها أول

ملاءة قابلتهن، كان بطنها منتفخا قليلًا ولها النظرة المحايدة المندهشة نفسها، أَحَطْنها بذهولهن وهي لا تعرف لماذا ينظرن إليها بجزع، لم تكن تبكي أو تصرخ أو تسقط على الأرض كأختها «سقاوة» متشنجة، لطمت النجدية على حظها في بناتها اللاتي يتساقطن واحدة تلو أخرى. قيدوا قَدَمَيْها وذراعيها ووضعنها في الفراش وأحكمن غلق الباب عدة أشهر، وبعد أن صار الذي في بطنها لحما ودما أخذوا المولود، ثم قُدْنَها إلى البيت المظلم حيث حَلَلْنَ القيود، وأَغْلَقْنَ النوافذ والأبواب، عاشت «هند» وماتت في البيت المغلق. من فتحة السقف يدلون سلال الطعام، ومن تلك الكوة التي ترى منها السماء كانت «هند» تتطلع إلى طيف ظبية هاربة تركت وليدا صغيرا لم يتعلم الركض في سماء سوداء قاحلة.

(٧)

ليس لـ«سهلة» صورة عرس بضفيرة من الفل أو تاج من الألماظ، كان لها فقط مفرش بلون البنفسج وستائر باللون نفسه، لم يغيروا من الغرفة التي سكنتها «هند» قبلها شيئا، ولا أدري هل دخلت فاطمة القرومية معها أيضا أم لا. كانت أمي دائما في الصور بهذه الهيئة، تجلس على كرسي، نحيلة ووحيدة كما هي الآن، ورثت من أبيها ذلك العود الطويل النحيل والأنف المعقوف والبشرة المتماسكة، كان لها رقبة ناقة كما تقول النجدية، تلك الرقبة المميزة التي لم تكن لأيٍّ من أخواتها، والعيون السوداء الكحيلة المبحرة، لم ترث من النجدية بياضًا ولا حمرة، ولم يكن شعرها كشعر «هند» أو «سقاوة»، ضفائر غزيرة، كان شعرها فاحما قصيرا، اعتدتُ أن أراها تلف الخصلات الأمامية في الجوارب القديمة المحشوة بالقطن لتصبح أسطوانية تلف عليها خصلات الشعر، لتصنع منها بوكلة على الحاجب بفرق جانبي في يمين الرأس، وبمزيد من الجوارب المحشوة تلف الخصلات الخلفية لتصنع استدارتها وتمويجها، مفتونة بتسريحة ليلى مراد، أو أسمهان، بثوب أحمر وبوردات بلون الفل يكشف ذراعيها وفتحة صدرها

وينسحب أسفل ركبتها منفوشا بالجيبون، وبعقد من اللولي الأبيض حول الرقبة الممتلئة الطويلة، تجلس في الصورة وعلى ساقيها طفلة طرية بلون القطنة وهيئتها، في فستان من الكروشيه الأبيض تحملها باتزان وأناقة على الساقين المضمومتين كأنها لم تكن في يوم من الأيام سوى هذه المرأة التي تحمل طفلة، ولم أكن قط إلا على ساقيها في الغرفة التي لها ستائر البنفسج. كانت تجلس أمام فراشها صباحا على كرسي عميق يواجه النافذة المطلة على بعض أشجار التوت والعنب، كنت بجانبها دائما عندما يدخل كل يوم حين يشعر باستيقاظها وأنها ارتدت هذا الروب السماوي الذي يزيدها اتزانا وأناقة رافعة شعرها، كاشفة تلك الرقبة العالية والعينين المتسعتين العميقتين. كان يدخل بعد أن يتأكد من أنها سمعت طرقه على الباب، لينحني فوق وجهي مقبلا عنقي ومطوحا جسدي في الهواء، بعدها قد يقول لأمي كما كنت دائما أسمعه: «بنت عمي بخير؟!»، «بنت عمي تريد شيئًا؟!». تهز رأسها فقط ولا ترد. تجلس أمي «سهلة» في التراس ضحوا إذا كان الشتاء، وليلًا إذا كان الصيف، تسحب خيوط الكانفاه، كان أبي يركن ظهره إلى الحائط ويجلس مفترشا الأرض ليتحدث عن المهاري والشواهين أو زرع نخلات جديدة في الفناء أو رحلة صيد مقبلة. كان يتكلم دائما بلهجة غير محددة ويبدو كأنه يحدث نفسه، وكان لا بد أن أكون هناك ليقول لي: «يا أميرة أبيك عمك مبارك يقول إن جبل عتاقة ما زال مليئًا بالجوارح، الصقر يُولِّف على المهجور، والطيرة الحرة إن عبرت البحر تسقط من التعب عند أول تلة»، «السفرة التي مضت أطلق عمك مبارك صقره الرامح خلف سرب من الحباري، ذقت الحباري يا حبيبة أبوكِ، السفرة القادمة أصطاد لك واحدة بشرك،

الخرطوش يسقطها ذبيحة، المهم يا صغيرة، عمك مبارك قال يارامح شوف شغلك، كثيرا قلت لعمك مبارك صقرك خائب ولم يصدقني. تتصورين يا أميرة أبيكِ جاءها الصقر من خلفها، والحباري إذا رأت الصقر من خلفها بزقت عليه ماء يشبه الصمغ يلصق ريش أجنحته ولا يستطيع الحركة فيسقط، قال عمك مبارك يسميه «الرامح»، ساعتها سقط وعليه كومة من البَزْق الصمغي وأبوكِ يضحك حتى شرق من الضحك، ليلتها ذبحنا حمامنا الذي خرجنا نتصيَّد به، وشويناه وعدنا.. قلت لعمك مبارك لو يسقط في ملفافنا شاهين سنقاري أو كوهية حمراء، كنت زماني شيخ العربان، عارفة يا أميرة، الأمير «لبد» يشتري الكوهية بخمسين ألف، قطعة واحدة، والله أبوكِ لو ربنا أعطاه فقط كوهية وشاهين، كان صار شيخ العربان «ذقت الحباري يا حبيبة أبيكِ، لحمها مثل الرومي بالضبط، ولونها أبيض» في دار جدك الباشا كانت هناك قاعة مليئة بالحباري، كان يُرَبِّيها كما نربي الحمام، الله يرحم جدودك يا بنت عمي الله يرحم الغاليين». عند نهاية الجملة فقط يتضح أنه كان يحاول أن يكلم صاحبة الثوب السماوي وأنها تدرك ذلك، ويبدو الأمر كما لو أنه لا يعنيها، فقط تراقب بأسى صفقاته مع النساء القصيرات اللاتي يعطينه الأوراق بعد أن يختمن ويبصمن، بائعا لهن هذا القيراط أو ذاك، محاولا أن يتقي نظراتها بأن يضع الصغيرة في حجره مرددا أهزوجته المفضلة:

«الراجل إن خس ماله من إيده حيلته زهيده.. الراجل الحق مثل الذهب في المراود، إن راد ربك ينكسر وينصاغ صيغة جديدة»[1].

(١) خس: قَلَّ، والمعنى أن الرجل الحقيقي مثل الذهب يعاد صياغته بعد أن ينكسر.

لم أعرف أنه كان بينه وبين أمي «سهلة» أبعد من تلك العلاقة المليئة بالحذر. بالتأكيد أن النساء اللاتي يجلسن في تراس النجدية، بعد أن يَسْكُبْنَ فناجين القهوة سيتحدثن عن « سهلة»، متى سيعوض الله عليها بالخلف؟! تراقب النجدية خطواتي المتسارعة في ضجة اللعب وتقول إنه فعل، وإنها لا تريد أكثر مني في حياتها، وحينما كبرت قليلا وكنت أسمع العمة مزنة، وهي تسألها سؤالا أكثر دقة عن كون أبي ينام في خيمته، ولا يبيت في غرفتها، تجيبه بخفوت: «كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه»، كان الجميع لا يستطيعون التكهن بما بينهما وسط ترفعها عن الكلام، هل كان ينام في غرفتها بعض الليالي أم أنه لم يفعل؟ بعد ذلك وحينما كان أن أفهم حياة الأزواج اكتشفت أنه لا يجرؤ على التحديق في وجهها أبدا، وأنه لا بد أن أكون بينهما إذا أراد أن يجلس جانبها، ليتحدث فقط عن كلبه السلوقي الذي دربه على ملاحقة الجرابيع، أو أنهم فقدوا طريقهم في سفرتهم الأخيرة. كان يبدو لي كطفل يحاول أن يثير انتباه أمه، أما «سهلة» فقد كانت تركز نظرها باتجاه شيء واحد بعيد، وتهز رأسها موافقة، أو تضع عينيها على حركتي حولها كأنني الشيء الوحيد الذي يخصها في هذا الموضوع، كانت تمتلك كبرياء ناقة حرون؛ ساكنة وهادئة ولا مبالية.

النجدية التي رشت لسهلة الرشوش؛ كي تذهب عنها الكوابيس ويهدئ الله سرها، وقطعت لها التبيعة التي تفسد عليها حياتها، تلك الروح السفلية المؤرقة كانت تقول عنها «مسكينة» أيضا، وربما أرادت مرات أن تقول لها إنه لم يعد يجلس في بيت القرومية على الإطلاق وإنه قد يكون الآن زوجا صالحا، لكنها لم تكن توحي بمثل

هذا الإنصات، لكن أمام تحفظ «سهلة» لم تكن لتعرف هل ما زالت ابنتها الصغرى بكرا أم أنه دخل بها، في الحقيقة كان أبي يغيب عنا طويلا ثم تهب عليه شهوة الاقتراب من مجلسها فيأتي ليتأمل الرقبة العالية والعينين المبحرتين، حينها كان لا بد أن يتعلل بي، يضعني في حجره أو يمسِّد شعري. وبعد أن صرت أطول قليلا صار يقول لي: «يا أميرة أبيك، مهرتك امتلأت وإن جاء ولدها دهمة[1] مثلها فيسكون لديك أعرق مهرات العرب»، وقد يجلس الساعات ليحكي لها الأحاجي عن الذي:

يعدي على الموج يرمش
عامـــدا جبـــالا خوالـــي
لازول جـابـه مـن العـــش
ولا نـــال مـا فيـــه والـــي

وبين أصابعه التي تلعب في شعرها تقول: الغزالة، فيضحك، و«وهل تعبر الغزالات الموج وتسكن الجبال يا أميرة العربان؟»، «المهرة»، «وهل المهرة تكمن في العش يا أميرة العربان؟».. «الصقرة»، «صح يا غزالة أبوكِ»، الصقر يعبر الموج ويأتي من بلاد الثلج ليحط على جبالنا العزلاء، أتعرفين ياحبيبة أبيكِ لماذا لا ينال ما فيه والٍ ولا أمير ولا ملك؟!

تقرفص فى حجره متسائلة أكثر.. «لأن الصقر عزيز لا يأكل مِنْ فَضْلَة أحد، ولا بد أن تتركي له الطيرة التي يمسك بها ليأخذ منها

(١) نوع من الخيول.

أول نسرة، بعدها يتركها هو لك»، يحملها على ظهره ليعودا إلى خيمته حيث العمة «مزنة» جالسة تبط له خبز الرماد وتغلي القهوة.. وتتناولها منه لتغني لها:

عينك عين الصقر الحايم
واحنا ناس رقاق عزايم[1]

العمة «مزنة» التي لا تكف عن تشبيهي بالصقرة والمهرة والمها. صارت لا تتكلم مع أمي «سهلة» على الإطلاق ولا تدخل البيت. فقط تجلس جانب أبي وتشعل له النار وتسقيه الخضيض. تأتي من العلواية التي تسكن بها وحدها، على حمار بخرجين وفي يدها عصا غليظة، تملأ خرجيها بخبز الشعير وجميد ولبن خضيض وأكلات أخرى لا تعرفها، وتسير بثوب أسود متمنطقة بنطاق من الخرز الأحمر، وما زال ذهبها في صدرها يصل إلى وسطها، وحين تعبر الشوارع التي صارت مليئة بالغرابوة والبراموة والشوام، والمهاجرين والفلاحين الذين لا تستطيع أن تقول إنهم «حبايبنا وخدامينا» كانوا ينظرون إليها باستغراب. العجائز فقط سيقولون لها: «اتفضلي يا ستنا» قبل أن ينهرهم أولادهم مؤكدين أن كل واحد سيد نفسه الآن.

بعد أن عاد أبي من سفراته مع الأمير صار أكبر كثيرا، صار يسعل وترتعش يداه، وصارت أمي أكبر أيضا، تحول شعرها الأسود لرماد داكن، لكنها مازالت كما هي تنظر إليه بأسف ولا ترق، يجلس أحيانا إلى جوارها في شرفة لمنزل قديم يطل على نيل ومراكب، وعلى

(١) لكِ عينان مثل عينَي الصقر، ونحن عزيمتنا رقيقة لا نستطيع مقاومة فتنتك.

الحوائط الباهتة تلك الصور والإطارات التي عليها لملوم الباسل و«بيير كام» وهند وانشراح، وتلك الصور الأخرى تبدو أيضا قديمة وبلا فخامة، مجرد أشياء تعسة تحتاج إلى الكثير من الترميم، مثل الحمَّامات التي تخرج منها صراصير حيَّة وأسراب نمل وأثاث عليه بقايا سنوات كثيرة أتعبته، ولم يكن شيء بها سوى النهر والمراكب، حتى إطار الشرفة الحديد المعشَّق بالخشب صار وسط البنايات الرخامية التي أحاطته بائسا وأكثر تعاسة من جلستنا الثلاثية على كراسي من البامبو الذي اكتسى لونًا ترابيًّا دَاكِنًا.

كان أبي يأتي فقط ليتفقدنا قائلا: «بنت عمي بخير»، ويقول لمهرة: «يا سِتْ أبوكِ تأخذي العين هذه ولا العين هذه؟»، كان يبدو أكثر ضعفًا حين يحب أن يقول لها إنه سافر بلادًا بعيدة مع الأمير «لبد» وهي تساعده في حمل كوب الشاي بيده المرتعشة ليقول: «آه لو فرخة سنقارية يا أميرة، كان أبوكِ صار شيخ البدوان»، صارت تناوله أيضا علبة دخانه التي ينسى مكانها وهو لا يكف عن لضم السجائر في فمه والسعال، وبصق أشياء موجعة من صدره، قبل أن يمضي كان يتفقد بعينيه شَيْبَهَا الذي لم تصبغه بالحناء، تركته خصلة بيضاء على جبهتها، رافعة شعرها في «التريبون»، ذلك البونيه الذي يضم شعرها كاشفة الرقبة نفسها التي ترك عليها الزمن خطوطا زادتها فتنة وترفُّعا مثلما زادتها الملابس الغامقة الأكثر احتشاما مزيدا من الكبرياء.

(٨)

«غـــلاك لا تخـــاف عليـــه
مدسـوس بين عينـي وهدبهـا»

يهنهن متكئا على رسغه، بثوب أبيض وعقال تنسدل من تحته العمامة البيضاء التي يطويها من الجانبين على رأسه، في فمه سيجارة مشتعلة يثني كفة يده المواجهة للكاميرا حيث يقف طير جارح، كان يطلق عليه دائما «الحرّ»، يقول الحر ولا نعرف هل هذا نوعه؛ «طير حر» أم لقبه «الحرّ»، يروضه حتى يصبح على ثنية ذراعه إذا طواه، ويطير ويحط على كتفه متى مشى، يحط ويطير ويعود إليه، يجلس ودائما خلفه بيت الشَّعْر وأمامه الأرض الرملية المواجهة، حرص أبي دائما على أن يظل هذا الفضاء رمليا وبلا غرسة ولا شجرة، فضاء تحوطه الأسوار التي صارت بفعل الزمن مهدَّمة وعديمة الهيبة، أضع تلك الصورة في مواجهة مكتبي، بإطار قديم له لون الفضاء الذي أحبه، وحين تدخل أمي « سهلة» تحاول دائما تحاشي النظر إلى صورته التي أعلقها في الغرفة، أعرف أن عينيها تهربان، ولكنهما ستخذلانها مرة

بعد أخرى وتتسللان لتراقب السيجارة في فمه والحر على ذراعه، وخاتمه الذي لم يخلعه من يده واضح في ثنية الكف، حين فارق أبي بيت الشَّعْر وجاء ليجلس بجانبها في البلكون كي يدَّعي أنه يشرح لي أهازيجه لأصير ابنة عرب حقيقية ثم يهنهن:

«غـلاك لا تخـــاف عليـــه
مدسوس بين عيني وهدبهـــا»

أو:

«القـلـب يـــا بعيـــد الـــدار
يمسي معي ويبات عندك»

أهز رأسي كما يفعل وهذا الوجع يركل صدري بشفقة عليه، بينما تدير سهلة وجهها بعيدًا متأملة السماء أو الممشى متشاغلة بفرك أصابعها ويحاول فك شفرة أهازيجه.. «محبتك لا تخشى عليها فهي مخبأة بين عيني وأهدابها، أو القلب يا من بعدت دياره، يمسي معي ولكنه يبيت عندك».

يمسح أبي لعابه بطرف كمه ويتسنَّد على عصاه، كان هذا قبل أن يرقد والسعال الذي يحتل فواصل الجمل يصارع لهاثه، وقبل أن تقوض «سهلة» بيت الشعر نهائيا لتفتح له غرفة بستائر بنفسجية لها باب يطل على شرفة من تعاشيق الخشب والحديد المطروق، زرعت في جنباتها الريحان وتركت أشجار اللبلاب تتهدل على قوائم الخشب القديم الذي أحرقته الشمس، فتحت له النافذة التي تواجه الفراش، فغردت عصافير كثيرة، وكان يراقب السماء والطيور التي ترفرف

بعيدا ويقول: «القاعة الفسيحة التي كان يتكئ فيها على البساط كانت ممتلئة بقصبان الملح». قال: خمسة عشر جارحًا تقف على القصبان، كي لا يفسد الفطر بطن الساق، أدار سيجارته في فمه وهو يتفقدها.. ثلاثة شواهين بيضاء خالصة، أتى بها «الأمير» من كندا، تفقَّد مخالبها ومدامعها، كلها كانت ابنة العام الأول. المكيِّف الذي يدفع بالهواء البارد، كان يخفف صهدة الأرض التي تفوح بها هذه الصحراء، في الجانب الآخر من القاعة، كانت خمس من النداوى[1] الحُمْر القانية وفي ظهورها هذه النقاط المرشوشة كالندى باللون الفاتح، يهز يده التي تلضم الدخان، ويقول لمن حوله: «النداوى شرسة، هذا النداوي الأقرع أكثرها شراسة». الصقرة السنقارية السوداء التي كان الأمير يعشق النظر إليها وقفت وحدها، يقول إنها «نادرة، كوهية[2] خالصة السواد»، صف بقية الصقور في جهة واحدة، قال: «الصقر أشجع، لكن الشواهين أذكى»، إنها تولِّف على صاحبها وتفهمه بمجرد النظر، ركن ظهره إلى الحائط ليحيط بها بنظره وجلس يخصف في شراك كثيرة من سبيب الخيل[3] ويهنهن بمجاريد عن العيون والمخالب والمنصار، كانوا حوله، وعلى أعينها هذه «الغماية» الجلدية السميكة التي تحجب الرؤية، جائعة ومُنْهَكَة لتستجيب له ولتدريبه، علا صوته أكثر لتتعرَّف نبرته، كان مولعا بالأشعار وحفظها، كما كان مولعًا بالمشهد الذي هو جزء منه الآن، طيور كثيرة يسميها كما يحلو له، مبتدئًا بالسين، تلك السين الموجعة كحروف اسمها العصى البعيد.. سعد، سبع، سهم

(١) النداوي: أنواع من الطيور الجارحة.
(٢) الكوهية: نوع من الطيور الجارحة.
(٣) السبيب: شعر ذيول المهاري.

سريع، سرد، سند، تعرف الجوارح الفرق بين حروف كل واحد فيها، يهتف بالاسم واضعا أمام صاحبه الحمامة الحية المعقوفة الجناحين تقفز هاربة متحاشية نقرته المميتة في مذبحها، بين الرأس والجسد يغرز منقاره الحاد، وعلى حواشيها يترك أظافره تنزع الريش، فاتحا في صدرها تلك النسرة التي يكتفي بها من غنيمته، سيقول إنه «حرّ» لا يأكل إلا حيا وإن قتله الجوع فلن يرضى بجيفة، بعد ذلك سيترك للجارح متعة إطلاقها من جناحيها، وربط ساقها بطرف خيط يربطه في وتده، ليترك له متعة إمساكها بمخالبه، مطاردتها ونشب أظافره في لحمها، ثم يعود متشامخًا على وتده، ليغني له بعدها.

وخايـف من الحـرّ القاتـل
«نداوى» متكوبي بحَمَـار[1]
نـداوي مـاهـوش ساهـل
مربـة فـي كـارة بـزَّار
يجيب الخـارم والجافـل
وحـنَّى كفـه والمنصـار[2]

يراقب هنهنة الحروف ومخارجها ويردد المجاريد على لسانه ليعرف كل جارح أنه يشجعه فهو حرّ، قاتل ليس سهلًا لأنه تربى على يد معلم حاذق، يأتي بالطائر الخائف ومن دمها تخضب كفه ومنقاره.

يهزج لجوارحه بهيام محب، يمكن أن يقضي الليل الصحراوي

(١) نداوي: نوع من الصقور. متكوبي: مخضَّبة.
(٢) مربة: تمت تربيته. كارة بزّار: مكان للتدريب. الخارم: الطائر. الجافل: الخائف.

الطويل في هذه الأرض الرملية التي لا يدب فيها سوى بعض الخدم الهنود والآسيويين. يرى قلاع وقصور الأمير بعيدة، يضوي فيها النور وترمح في طريقها السيارات الفارهة ولا تكف الضجة، يراقب العتمة الجبلية وأكوام الرمال في مد البصر ويقول لـ «عُطَيْر»؛ الشاب السوداني الذي يرافقه في تدريبها: «ياعُطَيْر كان لجدي الشافعي صقر يدعى القنوع الله يرحم الغاليين، كان يبرك على الصيدة فيحللها ويشرب فقط بضع قطرات من دمها ولا ينهش صدرها أبدا، جدي رحمه الله هو الذي يلقي له منابه وهو واقف على وتده، عمّر معه اثني عشر عاما حتى طفقت بثرة في حبة ساقه بين مبضع مخالبه، قالوا المسمار ينخز في عظام الساق حتى يهلكها، صار «عجوزا» في بضعة أيام وفي ساقه تكبر البثرة وتصبح في حجم الليمونة حتى وجدناه في الصباح كومة ريش متخشبة»، يهز عطير رأسه وهو يلوح ببصره باتجاه الضوء البعيد: «الأمير عاد من سفرته»، يكمل تدخين سيجارته وهو يتنقل من جد إلى جد، يتوجه إلى الصبي الأسمر ويقول: «جدي منازع الله يرحمه رحل كثيرا إلى دياركم، هل تعرف «ود مدني» يا عطير؟ جلب منها أم العبدة التي نشأت في دارنا كان اسمها انشراح. عطير الذي كان يحدثه عن السيارات المكومة خلف القاعة متآكلة من الصدأ أو العطل، قال له إنه لا يعرف «ود مدني» ولا انشراح، ولا جده هذا، أو ذاك، لقد جاء ليأكل عيشا وليس لدراسة تاريخ عائلته، ابتلع القهوة المرة دفعة واحدة وهو يقول له: «يا عبد فيك ريحة التعالب» عطير الذي سحب قدميه ووقف بعيدا يتأمل القلاع والعربات تركه لهذا الليل الصحراوي وحيدا يرصد الكائنات الرابضة بتشامخ على قصبان الملح كأنها فزّاعات مرصودة لإخافته، في

النهار يحوِّل القاعة إلى سرك يطلقها واحدا واحدا مناديا على كل جارح باسمه، سند، يا سند، هل تبصر هذه الحمامة، هاتها ياسند، يطير الجارح ولكنه لا يتوجه إلى فريسته بل يحاول الفكاك، يتخبط في السقف، يجذبه من الخيط الذي لم يزل حول ساقه، وهو يكمل: «ياسند أنت ولد شقي، ولن تأكل شيئا، ستنظر لسبع وهو يأتي بها»، «سبع، ياسبع.. أنت أذكى من صاحبك.. هاتِها». السنقارية وحدها كلما رأت الضوء، وأحست ببراح الخيط حول ساقها تخبطت بين الجدران، يقول للأمير الذي جاء يتفقد بَضْعَتَهُ ومرانها، ومن خلفه وقف رجال كثيرون: «إنها غبية، حمقاء، كسرت ريشة من قوادمها، جلست أجبر فيها عدة أيام وأعيد لصقها بالصمغ وربطها بالخيط، لكنهاحمقاء، لم تستجب للتدريب حتى الآن».

يهز الأمير رأسه ويقول: إنه يعشق النظر إليها؛ (الناقة الحرون والمهرة الحرون والطيرة الحرون.. تسبي لب عاشقها)، ضحكوا خلفه، وهز الأمير رأسه. حتى وهي مجبورة بالخيط والصمغ وقفت متشامخة، عزيزة وقصية، قال له: ماذا أسميتها.. ابتسم.. «سهلة»، أسميتها «سهلة».

الغزالات تركض، أسراب طيفية بعيدة، صخور سوداء تشق الوادي والجبل، تصعد باتجاه عيون الماء التي أسالت ماءها بين الصخور المرتفعة وانزلق على الحصى الندي، من الهيلكوبتر، كانت صفحة الوادي في غبش الفجر ناعسة فاختار السفح القريب، نزل الكثير من الهنود والآسيويين بعيونهم الضيقة، جالوا على السفح، تفقدوا آثار الهوام «قالوا وادي الضباع»، وكان الفضاء ليس به سوى بعض أشجار

الغردق، والأشجار الشوكية التي أوقدوا فيها النيران لتهرب الهوام، وتصاعد الدخان الكثيف، بعدها فردوا البُسط ونصبوا الخيام المكيَّفة ومبردات الماء، ومدُّوا خوازيق الشواء وجلبوا من الثلاجات اللحم المذبوح، واختلطت رائحة الشواء بروائح الهيل والحبَّهان والبن المحمص، بعدها استعدت الطائرة بأجهزة الرادار والكاميرات التي ستصور كل المشهد ليعيدوا مشاهدته مرات. الأمير ساندا ظهره وفي يده هذه النظارة المُكَبِّرَة، يرصد التلال الخفيضة التي كان على القطيع أن يعبرها قبل أن يصل إلى الماء، السهوب التي انتشر فيها الكلأ القليل كانت مكشوفة أمامه، وقف على التلة الأكثر ارتفاعا وأطلق طيوره من أقفاصها وأزال الغماية عن عيونها، ثلاثة، ثلاثة، هكذا صنَّفها لتصير فرقا متتابعة، الجوارح التي خرجت متوجهة بأجنحتها الراعشة إلى القطيع الذي ركض أمامها، بحثا عن الشقوق العالية ترك لها الصغار التي أربكها الطير وهو يخبط بأجنحته على عيونها، كل ثلاثة تحلَّقت حول غزالة صغيرة تدفعها بأجنحتها في خبطات متتالية، يصعد جارحٌ ويدور حول رأسها تاركا للثاني فرصة الرفرفة بين عينيها، بينما الثالث يصعد ويهبط دافعا أظافره فوق جبهتها، والكلاب السلوقي التي انطلقت في إثرها تجذب السيقان الباحثة عن الهرب فتسقط الغزالة منهكة، حيَّة، تحيط بها العربات اللاندروفر التي تصل بعد أن تكون الفرائس منبطحة معْقُوفَةً من الساقين وتتمدد كالذبيحة مطروحة في العربة، القطيع الذي كان يتوهج منذ قليل بالشمس القرمزية الغاربة خلَّف وراءه تسع غزالات صغيرات مطروحات في قاع العربات التي تنسحب إلى الخيام.

الجوارح التي عادت إلى قُصْبان الملح مكتفية بنسرة من صدر

الحمامات التي أُطْلِقت ابتهاجا بغنيمة القنص كمكافأة لها على استبسالها في القتال كانت تقف وترفع رأسها بشموخ، وكان صدره الممتلئ بالدخان وبفرحة النصر يستسلم للهاث ويركن ظهره إلى سياج الخيمة مراقبا أشرطة الكاميرات وهي تعاود العرض مرة بعد مرة وسط تصفيق الأمير تارة وصوت جلسائه، كان يراقب بحبور التعليقات.. «هذا الشاهين الأصفر النضير مثل الجنيه الذهب»، و«الله الصقر الحرّ صيود، والأحمر أصيل».. «لكن الحرّ يعمّر أكثر من خمسة عشر عاما»، «الطير يصيد أعوامًا لكن القناص لا يقنص إلا إذا كان حيْله شديدًا ابن عام أو عامين»، كان يريد أن يقول إن جده منازع كان له صقر حر عمّر أحد عشر عاما كان اسمه القنوع، لكنه لم يقل، كان يلهث فقط وينظر إلى السنقارية السوداء في خيطها وحول عينيها الغماية وقوادمها المجبورة، ساكنة لم تشارك في شيء، حلقت فقط في السماء، وخبطت جناحيها فجذبوا خيطها وقالوا: «هذه لا تُطْلق ولا تنقاد، حرون لا يرد رأسها إلا الجوع»، ربما تمنى أن يجلس جوارها الآن ويقول لها: «بنت عمي طيرة تسبي العقل»، لكنها كانت بعيدة. وحده الأمير يقول له بين آن وآخر: «هذا السفاح الذي ينهش وجه الغزالة بمخالبه ماذا أسميه يابن العم؟!»، سيجيبه بين حين وآخر: سعد، أو سرو، أو سعود، ويكتفي بأن يحرك إصبعه بلطف على ريشتها المكسورة متوجسا من ضربة أظافرها التي تهاجم بها كل الكائنات التي تقترب منها في ظلامها الطويل.

كيف يستجيب لتلك المقامرة، كيف يقف هناك على الربوة والأمير يناديه: «هات جوارحك يابن العم»، الجوارح التي عرفت الآن رسغه فوقفت مطيعة لإشارة يده، الجوارح التي أسماها كل الأسماء التي

كانت لأحلامه وتحلقت حوله كصبيان صغار ولدهم من صلبه، جيشه الذي صار به قائدا يدير تلك المعارك المهمة أخيرا ويؤكد فروسيته، كيف وهو الذي كان منذ دقائق يقول على كل اسم صفته التي راقبها تنمو وتلتصق بصاحبها، «سعد أشرسها يدافع بمخالبه ولا يترك فريسته إلا وعلى جلدها أثر نهشه، سرور أذكى، بضربة واحدة في منطقة محددة يعرف كيف يسيل دم ذبيحته ويلعقه، بضربة واحدة يحتضنها بمخالبه ومنقاره في مقتلها»، لكنه يستجيب مرغما، يقف الآن ليقول الاسم فقط اسم طائره ويكشف غمته والأمير يطلقه في الهواء بعد أن يسأل عطير: «بكم اشترينا هذا؟»، الأرقام التي تتناثر بلا معنى لا تشغل سوى عُطير الذي كان يركن ظهره إلى الحوائط ويحدث نفسه أنه لو امتلك نفاية السيارات الصدئة لصار أغنى واحد في بلدته، ولو امتلك هذا الشاهين الأبيض لصار صاحب الأمر والنهي، لكنه كف عن هذه الافتراضات، كان الأمير يقول إن «الإبل في وادي العجاج إكثار»، فلا يعرفون هل يشير إلى ماله أم إلى طير السماء، وحين انتهت اللعبة كان الأفق الغائم تحوم فيه الطيور التي كانت حتى اللحظة السابقة أسيرة إشارة معصمه، تحلق وتدور حول نفسها وتحوم حول الخيام المنضودة، وكان الأمير يضحك ويقول: «الطعمة تكسر العين»، كانت الطيور التي لم يزل يسميها حرّة تلتاث في السماء الواسعة بعد أن اعتادت الحمامات المعقوفة تحت أقدامها، والوقوف على الأوتاد وانتظار إشارة صاحبها لتنفذها، تعلو وتهبط متفقدة الوادي الذي صار بلا إبل ولا أسراب غزالات، فضاء موحش بالعربات اللاندروفر وخيام تفوح منها الضحكات.

السنقارية وحدها أبقاها في مربطها وحيدة معقوفة مُهْتَاجَة من

رفرفة الأجنحة حولها، وكسيرة بعينيها المحتجبتين، قال الأمير: «هذه الدهمة السوداء هي التي إذا أطلقتها فلن تعود «المرأة الحرة والصقرة الحرة أَعْنَد من جبل الصوان»، يضحك بتلذذ لمرآها الذليل، والشواء المنصوب والظلمة التي تقطعها الكلاب السلوقي بنباحها والطيور التي لم تزل غير قادرة إلا على الدوران في فلك الخيمة، كان الأمير يقطع من الشواء ويلقم كلابه وهو يقول: «كلب ينبح لك خير من كلب ينبح عليك»، من حوله سيؤمنون ويؤكدون أنه سيجمعها كلها مثلما يجمع القمري حبات القمح، فقط يطلق في مطلع الفجر سرب الحمام المفخخ بالشراك، كانوا يضحكون. في غبشة الفجر صمت الضحك وانطلق الحمام وعلى جناحيه الشرك الذي يشبه شبكة من خيوط شعر ذيول المهاري، زلقة وقوية، الجوارح التي جاعت، ألقت حوافرها في الشراك لتعود إلى أقفاصها ساقطة على الأرض من جديد؛ لتؤكد لهم أنه حتى الطير الحرّ يمكن أن تعقفه من طعمته، لم يحك لهم بعد ذلك عن جده الشافعي الذي كان يوقد النيران ليعبر الناس ويقولون نار آل الشافعي، لم يطفئها جدب ولا غيث، سيقول أبياتًا كثيرة عن الكريم واللئيم والريح التي تندار وجدب الأوطان الذي يرمي الحر على بلاد الغرباء، قال أشياء غير مترابطة ولكنهم كانوا مأسورين تماما ببلاغته:

وفي الأرض منـأى للكريـم عن الأذى
وفيهـا لمـن خـاف القَـلَـى متعـزَّلُ
لعَمْـرك مـا بالأرض ضيـقٌ على امـرئ
سـرى راغبًـا أو راهبًـا وهـو يعقـلُ

وكانوا يهزون رءوسهم لمخارج الألفاظ التي تشهد بفصاحته، ثم عاد، كان يمشي طويلا ولكنه لا يصل إلى شيء، على فراشه الذي نام عليه أخيرا وسط الستائر المسدلة بلون البنفسج كان يحلم بطيرة سنقارية عصية ترفرف بجناح مجبور بعد أن انكسرت قوادمها، لم يعد يكرر أحلامه بشاهين أَلْبِيٍّ خالص البياض يبيعه بربع المليون ويصير شيخ العربان، صار يقول فقط إن:

المال يسقِّم[1] كل عويل
وهو بين الناس دَوَار[2]

ولكن:

الساس اللي مبناه عويل
معيب وإن علَّيته ينهار

العمة «مزنة» فقط ستتولى ـ وهي مقعدة أسفل قدميه ـ تفسير أن المال قد يرفع العويل لأنه يدور بين الناس يوم معك ويوم مع غيرك، لكن الأساس الذي يرفع المبنى هو الأهم، فالأصل الطيب هو أساس كل شيء، سهلة لن تعلق، سيظل يراقب يدها التي اقتربت لوضع الطعام في فمه ويقترب بصدره اللاهث دون أن يقوى على التحديق في تلك العينين الآسرتين، سيقول: «بنت عمي تعبت معي»، فتهز رأسها أنه لا شيء، المهم أن تكون بخير، ستقولها بسماحة وربما بمودة، تسمح له بأن يستعيد بلاغته ليرد على مسمعي:

---

(١) يسقم: يتعب. عويل: قليل الأصل. دوار: يروح ويجيء.
(٢) الساس: الأساس.

وأفنيتُ عمــري بانتظـاري وعــدها
وأبـليـتُ فيهــا الدهــر وهــو جـديــدُ

تلك المرة لن أحتاج إلى عَمَّتي مزنة كي تهز شنافها وتشرح، كانت تسحب يدها من يده المرتعشة ببطء تاركة فضاء الغرفة، تخلع العمة مزنة نعلها وتفترش فروة الضأن، وتجلس قبالة فراشه وتسند رأسها إلى الحائط متأملة وجهه الشاحب الذي يطارد طيف صقرة سنقارية حرون بأشعار يجتهد في أن يستعيد نسبها إلى أصحبها، فهذا مجنون ليلى وذاك مجنون لبنى، وهذا من هزج البدوان، كان يعالج ميلها عليه بقرص الدواء بتلك التنهيدة الموجعة..

«الله يعلم أن النفس هالكةٌ.. باليأس منك ولكنِّي أمنِّيها».

تصبح التجاعيد الدقيقة تحت عينيها أكثر وضاءة، ترتعش العضلة التي تحيط ابتسامتها لتصبح أكثر هشاشة وضعفا، قد تبكي في غرفة الإطارات وعلى فمه كانت خراطيم الأكسجين تمتد إلى الرئة المتخمة بالدخان والوجع. يشهق تلك الشهقة الأخيرة طائرا مع جوارحه خلف صقرة سنقارية عنيدة، يمضي بعيدا لتستطيع سهلة بنت الباسل أن تبكي بحرية أكبر دون أن يطلب منها ذلك، تصبح أكثر هدوءا وحزنا وهي تراقب صورته متكئا في فمه سيجارة وعلى رسغه (الحرّ) وفي يده الخاتم الذي ستضعه في إصبعها حينما تفتح بابي لتواجهها أمام طاولة الكتب، فتدير حدقتيها بعيدا، وتغلقهما ريثما تستعيد أنفاسها الرتيبة.

(٩)

أنا مهرة بنت آل الشافعي التي ورثت بيتين؛ واحدًا على منيل الروضة لم يعد يسكنه أحد، وآخر يشرف على خليج من الرمل كان يسمى إقطاع آل منازع، ورثت أيضًا بناءً قديمًا يواجه بيت جدي يسمى المضْيفة، تلك التي كانت مسقوفة بالقرميد ومصقولة بألواح الخشب، وعلى حوائطها تلك المرايا التي لم تعد تعكس سوى غبش رمادي وقصص قديمة لرجال غامضين سكنوا غرفاتها. حين أتفقد الحجرة التي تطل على مربط الخيل من جهة وحديقة المانجو من جهة أخرى. سيقولون لي إن «بيير» الذي سمى نفسه سليمان كان يسكنها، على الشرفة الضيقة مازالت شجرة المانجو الهندي التي ربما تسلقتها هند وربما أيضا تسلقتها «سهلة» بخوف أكبر، من هنا كن يتلصصن من خلال حديد البلكون على حركة ريشته على الأوراق المحددة بالرسوم التخطيطية، ربما كان منشغلا طوال الوقت بنسخ الرسومات من جداريات المقابر التي تعمل بها البعثة الألمانية. كان صوت صهيل المهرات في المربط، وعواء كلاب بعيدة ينثر روائح الخوف والترقب، «بيير» الذي كان يدخن ويتحرك في الشرفة عاري

الصدر ممزقًا مزيدًا من الرسوم مصمم على الرحيل بعد أن قال للباشا إنه سيسير باتجاه الكفرة أو فزان لاكتشاف الطرق القديمة للقوافل. وإنه سئم من محاكاة النقوش في بيوت الأموات، سيهز الباشا رأسه متحدثًا عن الجد منازع الذي كان يسير إلى هناك بقوافل الشعير والملح والأقمشة. ترك «بيير» خلفه مزيدًا من القصاصات لرسوم غير مكتملة.

بعد عدة أشهر من رحيله عاد الصندوق الذي حمل فيه مئونته دون صاحبه، ظل الصندوق ملقى بقصاصاته الصغيرة في غرفته في المضيفة، حين انكفأت في محاولة لفك رموزه لم أجد شيئا مفيدا، لم تكن أوراقه مذكرات كما حسبتها في البداية، كما لم يكن بيير بعينين زرقاوين كما تخيلته. صورة وجهه الذي تكرر عبر محاولته لرسم نفسه كانت لفتى صغير شاحب. «أبو شريك» دليل القوافل الذي سافر معه سيقول لي: «كان لونه أصفر في لون الكركم، وشعره محلوقًا على بطحة بيضاوية وجسد أكثر تداعيًا»، أصابعه هي التي يمكن تمييزها من جلسته ساندًا ثنايا وجهه على كفة أصابعه في صورة فوتوغرافية، كان يجاوره فيها «أبو شريك» وأمامهم وقدة عالية من النيران.

لم يعرفون على وجه التحديد لماذا جاء، سيقولون يرافق بعثة الألمان في البحث عن الدفائن القديمة، لكنه لم يكن يرافقهم، الذين دققوا أكثر سيقولون إنه جاء ليشتري من الباشا لفافة من كتابات الفراعين كان الجد منازع الكبير الذي رافق «دورڤتي» في تل المسخوطة يحتفظ بها، بل كان يعلقها على عمود خيمته كتعويذة، تلك البرديات لم تكن نادرة، في الحقيقة كانت كثيرة وموجودة في

كل المقابر. يؤكدون أن الجد حصل على هذه التعويذة من الرحالة دورقتي. تخصص «دورقتي» في البحث عن المومياوات، وجمع كثيرا منها، كان يجد دائمًا تلك الأوراق بين ساقَي الموتى ولا يهتم بها، احتفظ الجد بواحدة منها علقها في حقوٍ على جدار خيمته لأن حرقها يجلب الفأل السيئ، والإبقاء عليها يخيف الشياطين، وروى عن بئر «هديوه» حين كانوا يمرون عليه، كان في قاعها تلك الأحجار المنحوت عليها رسوم الفراعين وكيف كان ماء البئر رائقا وقريبًا لدرجة أن يستطيع الذي يدلي رأسه رؤية نقوش الحجر بوضوح، اعتادوا بعد ذلك أن يلقوا تلك الأحجار التي سحرها الفراعين في آبارهم لأن لها فعل الشبة والمستكة، تجعل الماء رائقًا مثل الفضة، الجد الذي علق الأوراق كان يعتقد أنها تفزع رواد الخلاء وترد العين الحاسدة، سيقول له المسيو «أركان» الذي رأس البعثة الألمانية في تلال اللقايا. إنها تعاويذ يقاوم بها الأموات الوحدة الطويلة ويتوسلون بها إلى الرب، فهز الجد رأسه وقال: إنها تطرد الديدان أيضًا، ألا ترى جثثهم تظل كقطعة ملساء من الخشب؟!

عندما جاء «بيير» بعد ذلك وقال إنه تلميذ لدورقتي فرش له الباشا المضيفة قائلًا إنه حبيبهم، وكان يقنص معهم في الأرض الخلاء أو يصطاد مع الجد الأرانب البرية بالنبال. ثم أشار إلى صورته التي تتصدر غرفة الاستقبال وهو يتوسط مجلس القهوة بجوار الجد، كان الباشا قد أعجب كثيرًا بالبايب الذي أهداه إليه لأنه كان من العاج الخالص، كانت عصا الأبنوس السوداء أيضًا مبهرة، لكنهم لم يعرفوا بكم علبة من الخرطوش أخذ «بيير كام» تلك البردية التي نقشها الفراعين، الباشا صار يضع عصاته بجانبه بفخر متحدثًا عن «ود مدني» ونقاوة

ورحلات أجداده إلى بلاد الذهب، لم يجد أحد أثرا لتلك البردية القديمة، لكنني وجدت في حقو من جلد الغزال في صندوق «بيير» على نَقْشٍ بدا لها أنه استنساخ لها رسمه بيده مع اسكتشاته.

ربما كان «بيير» يتردد على حفائر البعثة أيامًا طويلة، أو ينقش جداريات ويرسل بها إلى الجمعية الاستكشافية المصرية تقارير مفصلة عن طبيعة الكشف ودرجة ثبات اللون، كف بعد وقت عن فعل ذلك حين غرق في رسم وجوه كثيرة كانت حوله، لم يبد بيير أكثر من هاوٍ رافق كثيرًا من البعثات لأن كل الذي وجدته مهرة لم يكن سوى ملاحظات غير متعمقة ورسوم تخطيطية لجوانب الكشف، كان رساما كما أعتقدت وقد جاء ليدرس خامات الألوان ودرجاتها.

يمكنني أيضا التكهن بعد فحص مزيد من أوراقه الصغيرة التي دوّن فيها جُملًا غير مترابطة ورسومًا غير محددة الملامح التكهن بتفاصيل حياته من تلك الاسكتشات التي تركها وراءه. فهذا الجالس بوجه أوربي حليق يطل من مركبة تجتاز خارطة لمحيط هائج وإلى جواره تلك المرأة ذات الوجه المسحوب التي تركت لخفها الأحمر تحت الثوب المنفوش ملامح أوائل القرن هما أبوه وأمه.

كتب بيير في أوراقه: «لأنه أحب رائحة الطحلب ظل مسافرا، وكانت تجلس أمام النار تنسج عبر إبرتها رداء للشتاء الذي بلا رِجل بينما كان يحمل البن من اليمن والشاي من الهند والذهب من نقاوة والعبيد من كاجو. عندما صرت شابًّا أحمل تحت إبطي مزيدًا من الأوراق في محاولة لرسم وجهها كان يحدثني عن شرف العمل في البحرية، كنت أواصل رسم اللوحات لنساء يشبهنها».

في لوحة غير مكتملة رسم «بيير» وجه مس مارتينيه بملامحه المحددة في عباءة من الصوف وبعقال على جمل ربما في إحدى رحلاتها بمعبد أبي سمبل يعكس هيئة شابة جامحة تختلط في ملامحها الأنثى بالرجل، الملامح الفتية تتحول إلى عجوز تجلس خلف طاولة ممسكة في يدها نسخة من كتابها «رحلتي إلى الشرق»، ساندة رأسها إلى وجه حتشبسوت الجرانيتي الصلب الذي وضعته أمامها، ستقول إنها أول رحالة في التاريخ، وإن في معبدها جدارية لأمجاد رحلتها العظيمة إلى بلاد بونت. مفتونة بالرغبة في المغامرة، حملت أقلامها وكان معها عدد من هواة الرسم التخطيطي الذين رأوا في الفرعونيات مقاييس دقيقة لمراعاة الأبعاد وتوازنها، كانوا هناك قبل أن يبتكر ڤوجير عدسته الدرامية، وقبل أن يكون هناك محلول زئبقي أو زنكوغرافي، نقلوا مجرد خطوط أولية لبهو الأعمدة أو طريق الكباش في ذهبية باتجاه أبي سمبل أو جزيرة فيلة. يقضون الليل يرقصون على طنين بعوض النهر ويجولون في النهار ليرسموا صورًا أكثر تجريدًا وهم يتناقشون حول شامبليون وسير جاردنر ويلكنسون وكارتر، ويحلمون أن تتعثر جمالهم في الأرض الصخرية للبر الغربي وتنفتح على سراديب لمعابد سيكتب عليها أسماؤهم، ليعودوا محملين بتابوت ملكة بلاد بونت أو مكتشفين سر البقاء الأزلي في تميمة «مرت ـ سر ـ قت» «محبة الصمت» آلهة الجبانات في طيبة. مُتفائلون باقتناء هيكلها الضفدعي القاتم، لكنها حين عادت لم يكن بحوزتها سوى الثرثرة عن صخور الصحراء التي تشبه الذهب الأحمر، والألوان المتدرجة للمنحدرات الرملية، وصفرة زهور المشمش مع امتداد لا نهائي للأزرق السماوي والزئبق النيلي أسمتها رمزية

الألوان في مصر القديمة متحدثة عن سر المغرة الحمراء والصفراء التي يخضبون بها جسد الموتى كي يعودوا إلى لون الصحراء التي يحييها النيل كل دورة إخصاب. ومستفيضة أكثر عن متعة الرحلة إذا توفر للحمار فيها سرج إنجليزي جيد أو باخرة ذهبية لتوماس كوك.

ربما كانت تستند إلى بعض التوابيت والعاديات التي ملأت بيتها، تلك التماثيل الصغيرة والحلي التي اشترتها من الأعراب بعقود خرز أو قطع فضية. وهي تخصص جزءًا من أموالها للجمعية الاستكشافية المصرية. مس مارتينيه هي التي أوفدت «بيير» لجمع مزيد من المعلومات.في القصاصات التي صار يكتبها ولا يرسلها محدثًا إياها أكثر في الخطابات عن نظرية ترميزات اللون التي صار يراها أقرب إلى السفسطة. كانت القبور المفتوحة حديثًا لا تمثل له سوى جثث لأموات يريدون أن ينفذوا إلى السماء، ويتحولون إلى نجوم أبدية لا تعرف الغياب، الأجساد التي تكومت أعضاؤها في الأوعية الكانوبية؛ القلب، الأمعاء، الكبد، والبطون المحشوة بالعطر واللفائف الكتانية التي تلتف حول الجسد كانت تدفعه إلى تمزيق ما رسم، والكتابة لمس مارتينيه عن أشياء أخرى تستحق الاكتشاف كالحياة والموت. سيكتب لها «رسمت العقبان وهي تهبط بمناقيرها على جثة الناقة التي نفقت في طريق ما، إنها تهبط في الحال، كثيفة وكاسحة كالورثة تتقاتل وتتنازع على الجسد الميت وتخلفه وراءها مجرد عظام حين يهبط المطر ستزداد الهياكل بياضًا وهشاشة كالتي يتعثرون بها في الطريق فيتأكدون أن طريقهم صحيحٌ وأن كثيرًا من القوافل قد عبرت قبلهم، أو عن التجار وهم يتحركون بالقوافل ليلًا ـ هكذا قالوا ـ حاملين الماء معهم ويسترشدون بالنجوم كالبحَّارة،

يرقب الدليل حركة الأفلاك ويتحدث عن النجمات البعيدة باعتبارها خرائط حركته.

رسم «بيير» كثيرا من الوجوه التي اكتشفوها في قعر صندوقه ولم يهتم أحد بما بقي منه، فردت النجدية على فرشتها في البلكون هذه الأوراق وهي تعطس نشوقها، والخادمات يتكهنون عبر التفرس في الرسوم أن هذا أنف «أبو شريك العيادي» أو سمرة مبارك العبد، ثم عبّأن القصاصات وأعدن غلق الصندوق والقين به في المضيفة.

لم ير أحد في الرسومات التي فحصوها كيف كانت «هند» بوجه قطة مدسوسة في تلك الأوراق. لم يعرفوا كيف تسللت على أغصان شجرة مانجو وتسلقت البلكون وتلصصت على رقدته، ثم بدأت تلحس قدميه وأصابعه التي بلون الكركم، ابتسم في غفوته وضمها فدفنت رأسها في صدره وتصاعدت أنفاسهما بما يشبه شخير الرضى.

لم يروا في قعر الصندوق ملامح امرأة أخرى لم تكن تشبه «هند» ولا «مس مارتينيه»، كانت لها رقبة الجازية الشريفة وقصَّة شعر ليلى مراد، كانت مستلقية في فراشه نحيلة وطويلة كصقرة سنجارية مرتعشة بين يديه. من المؤكد أنهن يعتقدن أن ثمة تشابهات لم يريدوا أن يتمادوا في ملاحقتها؛ لأنهم لا يريدون، والأموات يأخذون أسرارهم معهم على أية حال. يقولون إن «سهلة» كانت تضع رأسها على الصندوق وتبكي، وإنها قد فرزت الصندوق أكثر من مرة، وإنها ضمت تلك الأوراق في جديلة من الشعر، وقالوا إنها كانت بئر عميقة لا يعرف أحد أسرارها. بعد موت «هند» نزعوا من رقبتها سيرًا من الجلد العريض تتوسطه عين من العاج السحرية، في حافظة جلدية

قديمة خبأت فيها امرأة لها رقبة الجازية الشريفة هذه القلادة مع بعض الصور القديمة. وضعت «سهلة» هذه التميمة. في تلك الحافظة أيضًا كانت أشياء أخرى أقل أهمية؛ صورة الخال وتميمة المحبة. بعض قصاصات لوصفات طبخ المكبوسة وتخزين عصائر المانجو وعمل مربى اللارنج أو طرق صنع الآيس كريم منزليًا، بجانبها أسفل الصوان كانت زجاجات عطر شبه فارغة، ومع أنها تبدو لم تستعمل على الإطلاق فقد طارت مخلفة حول فوارغها. بقيت قصاصات صغيرة تبدأ بـ«زوجتي الحبيبة، وابنة عمي الغالية، وحبة قلبي». ومؤرَّخة بأزمان بدت بعيدة فوقهم. كانت أثواب مفتوحة الصدر وچيبونات من التل المنشى، وأطقم من الستان الوردي خاطتها مس أنچيل.. لكن سهلة لم تلبسها أبدًا.

(١٠)

أسندت رأسي إلى البلكون عندما مرَّ أبو شريك العيادي وجلس على رماد كان أبوها يدفس فيه بكارج قهوته وقال لي: «هل تعرفين طائر القنفس؟». قلت: لا، قال: كان يطير حولنا ونحن نعبر الأرض الصخرية في مسيل الحصباء فيقولون إنه أجمل صوت غنى به طائر. يجلس أبو شريك بجانبي ويحكي كيف كان « بيير» الأوراق التي يخبئها في حقو من جلد الغزال ويجلس بعيدًا ليكتب، يقول: عبرنا السهوب الحمراء ثم حر من الرمل الناعم، وقطعنا الأرض التي غشيتها قوافل ريش النعام والعاج والعبيد من أسوان صوب الغرب مارّين بواحة كرر ودنقل وآبار التياهة، لكننا لم نصل إلى واحة «سليمة» ـ عبر الطريق القديم ـ كما كان يود أن يصل إلى بربر وشندي وسنار قاصدًا ساحل العبيد أو مناجم الذهب!! قال أبو شريك ذلك ثم مضى، سحب العصا التي تتطوح بالشرك وفرك من عينيه ضباب الأيام البعيدة وقال: «إنه يغرد سبعة أيام بصوت يسبي اللب، بعدها يسقط ميتًا، قالت له: من؟! قال: «طائر القنفس».

مشى باتجاه الأئلة التي يسكنها على الربوة أو العلواية كما يسمونها حيث كانت «انشراح» تختبئ إذا جاء العسكر خلفها، يجري خليج منازع بالجثث النافقة وبقايا الذكريات، يجذب الخيوط التي تناثرت حوله ويبصق في كفه ليعيد لضمها في حركة لولبية كي يضمن نحولها وقوتها، ثم يعقدها كي تصير دوائر مفرغة كقرص من الشمع تسقط فيه مخالب الجارح ولا تخرج، تنعقد الخيوط أكثر كلما جذبها، كان ماهرًا في صنع الشراك واقتناص سبيب الخيل من ذيول المهارى، وإخفائها في جرابه ليرتق عمد الشرك، يصعد إليه هناك بعض الصبية الذين دأبوا التحلق حوله ليحكي لهم عن شرَّافة بنت قبائل البشارية التي أتى بها الجد منازع، أو خشم الموس وعبيد عيلة الشافعي الستة، سيفتح الصغار أفواههم بدهشة وهو يلضم الخيوط ويفردها، وقد يسألهم كما كان يسألهم دائمًا: «ابن من ياولد؟».

الصغار الذين سئموا من أن يرددوا أنسابهم التي ينساها كل مرة، وإذا تذكر فقد يعلق بأشياء لا يحبون تذكرها، مازال يحتفظ بحدة بصره وذاكرة لا يمكن الطعن بها رغم انطمار كل مساحات جلده تحت التجاعيد التي أحكمت دوائرها حول العينين، وأبرزت الأنف النحيل والفم المزموم، يفك أبو شريك في القراطيس الورقية التي يخرجها من سيالة معطفه القديم وينتظر أن تفور القهوة على الرماد بعد أن يشعل نيران ركوته، تفوح منها روائح مختلطة محكمة البهار، وتتناثر حوله أوعية بلاستيكية فارغة أو ممتلئة بالماء، يعيد إحكام القراطيس الورقية ويخبئها في سيالته بعد أن يمضغ مزيدًا من أوراق الداتورا ويلفها في سجائره، يتقافز الصبية حول ربوته باحثين بين القنافذ الشوكية والصبارية والأشنان الجبلية عن أوراق أخرى تنبت هنا، أو هناك، يدخنون معه

ببطء ويقولون له إذا أرادوا إغضابه: «أنت جمّال»؛ ليؤكد لهم أنه كان دليلًا للقوافل وليس جمّالًا، لا يجدون فرقًا كبيرًا فيعيد حكي ما بدأه من قبل من أنه كان يقود قافلة الحج المكية للقصير، كما أنه رافق كثيرًا من الرحالة مع منازع الكبير في جبانات الفراعين قرب تل المسخوطة حين كانت الطرق إليها مجرد خرابات لا يفكر أحد أن يطأها، وأنه ذهب كثيرًا إلى مقرن البحور أو مسيل الذهب. لا يصدقون ما يقول تمامًا، لكنهم ينصتون ويلتفون حوله ليعلمهم غرزة الشرك، وطرق لي الخيوط وسط التلافيق كي تضيق حول ساق الجارح ولا يستطيع الإفلات، يهبطون ويتركونه لوحدته يغازل أشباحًا قبل أن يسألهم من جديد: «ابن من ياولد؟»، ليحاول لضم الأب بالجد ليرسم شجرة لأنساب لم يعد أحد يتذكرها. قد يقضي يومه ماشيًا بين حوائط النجع حاملًا حربته الطويلة التي علق بها خيطًا أطول يتأرجح فيه شرك كالطائرات الورقية التي يصنعها الصبية، يقول إنه يلفلف، لكن الشرك لا تسقط فيه سوى أعواد القش من الحقول، أو ينشبك في أعواد السيسبان على حواف المزارع فيشد الخيط قاطعًا إياه غاضبًا ثم يحمل خازوقه الفارغ ليعيد صنع شرك جديد.

الخيوط التي بين يديه ستتعقد أكثر إذا أراد أن يحكي وأن يسمعه أحد، وسيسره كثيرًا أن يمسح لعابه بطرف كمه ومكان الأسنان الخاوية، ويملأ فمه بالتفاصيل، يقول ويعيد لتستطيع مهرة بنت الشافعي أن تفهم، وسيجد في إسناد رأسه إلى شرفة البيت المعشقة بالخشب والحديد المطروق واقتسام فناجين القهوة مع العمة مزنة التي لا تعير ما يقول بالًا إلا إذا ارتكب خطأ جسيمًا يقتضي التصحيح، فالشافعي لا يمكن عدّ زوجاته ولا أولاده، والبنت التي ألقاها الجد

محجوب في النهر كي لا تتزوج فلاحًا، ولو كان التركي الأحمر كان اسمها «عسرانة» وليست «خيالية» ـ كما يقول ـ ومنازع لم يتزوج بنت قبائل البشارية، بل قبائل الشايقية فقد كانوا حراس بلاد البجة وأصهار بني سليم، كنت أراقب فمه الذي يرتعش وهو ينسكب بالحكايا، أراه بعد ذلك وهو يتوكأ ليسير باتجاه باب البيت ويختفي خلف السور الذي يحيط بحدائق المانجو والبرتقال ومرابط الخيل المهجورة، على خليج الرمل الناعم الذي يتجمع عليه الشباب في الغروب ويمزجون عبق دخان مجلسهم برائحة القهوة المغلية. يتوسدون أكواعهم وهم ينظرون إليه. يسير وطرف الخيط المعقود في عصاته يتطوح ذات اليمين وذات اليسار كأنه شِصّ من الخوص يخجل أن يصطاد به الصبية الأسماك في خليج منازع، يقترب ببطء ويتفرس في وجوههم سائلًا بجدِّية: «عرب ولا فلاحين؟».

الصبية الذين سئموا ترديد أنسابهم قد يضحكون وهم يدفسون بكارج القهوة أو يذيبون فيها قطع الأفيون وينفخون في الرماد ويقولون: «الله يرضى عليك ياجد شوف سهراية ثانية». الولد الذي ناوله فنجان القهوة كان له لون أسمر داكن يرف في ثوب أبيض ويثني عمامته على رأسه. تلقفه أبو شريك بنظرة فاحصة، لم يقل له ابن من ياولد، باغته بسؤال أكثر حدة: «أنت من عبيد منازع ولا الشافعي ياولد؟!»، لم يقل الشاب الوسيم شيئًا، نفخ مزيدًا من الدخان وساد الارتباك ثم الصمت. أبو شريك الذي واصل تساؤله بإمعان أكثر: «أنت ابن مبارك العبد؟»، أحس الفتى بتوتر أكثر زاد من حدته صمت الجميع، قال: «جدي مبارك»، بلع أبو شريك ريقه بفخر وهو يحاول التذكر بالضبط: «جدك خشم الموس ياولد، جاء به منازع من

المجرى التحتاني قرب مقرن البحور، كانوا عشرة من العبيد أسكنهم غرب «أرض البدوان»، كان خشم الموس مثلك يابن مبارك له عيون ثعلب صغير، ضحك الجميع من حوله ولكن الفتى لم يضحك، «كان منازع يقول له دائمًا: ياعبد لك ريحة الثعالب»، ضحكوا أكثر ثم ساد الصمت فأكمل:

ـ وماذا يسوي أبوك ياولد مبارك؟

ـ بالبيت معه ضيوف يبيع لهم صقورًا.

ـ بعقال ياولد أم حضر؟!

ـ كوايتة ياجد.

ـ وكم صيدة وقعت في ملفافكم يابن مبارك هذا العام؟!

ـ ثلاث ياجد.

هز أبو شريك العيادي رأسه وكفى فنجان قهوته على الرماد، كان يريد أن يتحدث أكثر عن خشم الموس، وروضة، وانشراح وقوافل العبيد التي تأتي من «هرر»، لكنه أحس أنه يجب أن يمضي، تسند على الجدران بين الحوائط الخرسانية تائها، لا يعرف كيف يعبرها ليصل إلى الأرض الرملية، والربوة وأثلته العجوز، البيوت الخرسانية التي اصطفت عالية لا تكشف شيئًا، ليس وراءها سوى الطريق السريع الذي تمضي عليه عربات طائشة لا تقف لدليل قوافل قديم لتسأله عن بئر خور السبوع أو أحراش أرض البجة.

دار حول نفسه أكثر وتسنَّد على الكثير من الجدران ليعيد رسم

معالم لم يعد لها وجود، كان الدوار وحده هو الذي يرافقه، منذ عدة ليالٍ وهو يشعر به كشيء يحسه ولا يفهمه، صار لا يرافقه بل يقتحم ذاكرته ويدفعه للإيمان بأنه عاش تلك الأشياء التي تمر به من قبل، كان قد سمع كثيرا عن رجال بيض يحتسون القهوة في وقار ويسألونك عن أحوالك ثم يختفون كالسراب كأنهم يذوبون في ذلك الوهج الصحراوي الأخاذ، صار مستعدًا لأن يتبادل مع أشباحه الحكي ولا يزعجهم، لكن الذي يرافقه لم يكن أكثر من رائحة لمزيج من البوتاس الذي تغسل به النسوة مختلطًا برائحة فطر أو كلس؛ تلك الرائحة التي هي رطوبة قبر قد فُتح لتوه ليضعوا فيه وافدًا جديدًا، بدأ الإحساس بأنه عاش كل تلك الأحداث من قبل يطارده أكثر، ولا يجد سوى أن يطلق ساقيه لتسيرا بلا اتجاه مصاحبًا هذا الدوار. يقف في منتصف الشوارع بعد أن يفقد اتجاهه، يقف طويلًا بجوار الحوائط ليقرر أن دخول هذا الشارع سيفضي به إلى الجرف العالي حيث تسكن العمة مزنة، أو يعرج منه إلى تلال اللقايا حيث معسكرات البعثة الألمانية، وهل يجد في نهاية الطريق دوار آل منازع أم بيوت أولاد الشافعي؟! يدور حول نفسه ويعود ليسأل المارين: «بيت من هذا ياحلوة؟!»، و«دوار من هذا ياشيخ العربان؟!»، وعلى الرغم من أنهم يجيبونه بالتفصيل عن أنسابهم وأصحاب الأبواب المغلقة فلن يستطيع أن يضعهم على خرائطه القديمة لإقطاع البدوان، تلك الأرض التي كان يعرفها منذ كانت مرمحا للرمال ووسط بشر من المفترض أنه يعرف أسلافهم حتى الجد الأول.

شد أبو شريك خيوطه التي توشك على نهايتها وقال لها إنهم أبحروا من أسيوط غربًا مرورا ببئر خور السبوع، في اليوم الأول كان

ماؤه المالح لا يستطيعون التزوُّد به، قافلتهم كانت خمس ركائب حمّلوها بالمؤنة، ناقته وحدها هي التي كانت تحمل صناديقه الكثيرة، بعد ثلاثة أيام من صحراء قاحلة عبرها آلاف المرات، كان يعرف جحور الأرانب وأماكن الهوام، وعدَّ كل أشجار الغردق على ربواتها، ركض خلف الغزالات وتشققت قدماه من المشي بها، تبعثرت الطرق مع هزج الجمال وكان الغد لا يكشف سوى رمال حمراء قانية، كانوا يفترضون أنه في اليوم الثالث بعد عبور وادي زيدون بأحجاره الصلدة التي لا يشقها سوى ممر ضيق سينبسط الأفق عن الأرض الخفيضة وتظهر آبار التياهة بمائها الرائق ليتزودوا منها، أعادوا رسم خرائطهم، التلال الرملية التي انشق عنها وادي زيدون لم تنته كانت كثبانًا حمراء تتعثر فيها أقدامهم كبحار من الدقيق الهش، والأرض كلما أوغلوا ازدادت جفافًا، والدواب الخمس سئمت من البحث عن عشب يصلح للمضغ.

«بيير» الذي اكتفى بالانكفاء على أوراقه ليرسم أو يكتب كلما خيَّموا لم يوافق على فكرة العودة، الأرض الرملية التي اندثرت فيها آبار التياهة كشفت في اليوم الرابع عن حصباء حجرية بدءوا يرون على حصواتها آثار دم وقيح ينز من أول النوق التي تركوها خلفهم، وعندما عادوا كانت جثتها النافقة إحدى العلامات التي تعرَّفوها، الصناديق التي انتقلت إلى سنام آخر كان يجب تقليصها بإلقاء أكداس الملابس التي في جرابه وتمزيق عدد من لوحاته والتخلص من أدوية الصداع والإسهال والقيء بعد أن صار العطش هو المرض الأقوى والذي تأهب لأن يفتك بهم جميعًا، لكن الذي أرغمهم على العودة لم تكن النوق بل كان الطريق، فرغم أن البوصلة ساهمت في تحديد

اتجاهاته بعد أن رصدوا الشعرى اليمانية تقطع السماء عرضًا، والنثرة تغيب باتجاه الغرب، ولكن آبار التياهة لا تظهر، ولا مسيل الحصباء يكشف بئر السلطان كما كانوا يتوقعون، ولم يعودوا يرون سوى مجرد سهوب حمراء برمال شديدة القسوة تطير وتركل في حدقاتهم، اضطر «بيير» إلى إلقاء نظارته على الأرض بعد أن حولتها الرمال إلى خدوش لا منتهية يصعب الرؤية من خلالها، اكتفى بإخفاء وجهه تحت اللثام وشد حواف العقال على رأسه واستبدل حذاءه الرياضي بخف من سيور الجلد، أعادوا حساب ليالي السير. النثرة تأرجحت باتجاه الشمال والجبار في الجنوب وبدت نقرات الظباء جلية تكشف عن آثار ظبية في صحراء شاسعة، استعاذوا بالله من نحس الطالع وقالوا إنها نذير فراق، لكن سحابة الغبار شغلتهم عن العرق الذي كان ينز من جبينه والذي تحول إلى سخونة لا تكفيها الخرق المبللة، نصبوا له صندوقه الخشبي على ظهر الركوبة وأحكموا الحبال حوله، كانوا لا بد أن يعودوا بأقصى سرعة، لا لينقذوه بل لأنه ربما نالهم المصير نفسه والقِرب تفرغ واحدة تلو أخرى.

يتمايل الركب وسط هنهنة خفيضة تختلط مع هذيانه الذي أضحى مسموعًا، لكنها لما صارت فوقهم تمامًا تلوح في السماء بهيئة نجمة تركض وخلفها صغارها الواجفة. قاموا فوسَّدوه الأرض الرملية حيث كانت هناك آبار يقال لها آبار التياهة كانوا يمرون عليها ذات يوم.

في الحقوِ لم تكن سوى بردية اشتراها من الجد قالوا إنها ظلت معلقة في عمود خيمة ما لتفزع رواد الخلاء، إذا فتحوها فقد يجدون بيوتًا وطرقات وعصافير وبطات تسير في النهر، أو راعيا يعبر بقطيعه

السهوب، أمَّا تُرضع طفلها على الضفة الأخرى، تمساحًا يمد رأسه باتجاه مركب الصياد. ضفدعًا طينيًا رخوا يدفس رأسه في بيات طويل، حين تجلس مهرة لتفك رموز البردية سترى راعي القطيع الذي يجلس على ضفة النهر يشبه جدا من أجدادها كان يسير وسط التلال التي لها لون المَغَرَّة الصفراء أو المخضبة بحمرة الشفق، وجِمالًا تعبرها كسفن بعيدة تلوح للخلاء قد ترى آثار ظبية واجفة، أو هَيْكَل بعير نافق، وربما رماد قهوة كانت لها روائح بلاد بونت البعيدة.

ميرال الطحاوي

ـ كاتبة مصرية تعمل أستاذا مساعدا بجامعة نورث كارولينا.

ـ أصدرت عام ١٩٩٥م مجموعتها القصصية الأولى «ريم البراري المستحيلة»، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ عام ١٩٩٦م أصدرت روايتها الأولى «الخباء» عن «دار شرقيات» في القاهرة، وأعيد طباعتها في «دار الآداب» بيروت عام ١٩٩٩م، ثم صدرت طبعة شعبية منها في «مكتبة الأسرة» القاهرة عام ٢٠٠١م. وحازت جائزة أفضل عمل روائي عن هذه الطبعة، في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠٠٢م.

ـ تم اختيار روايتها «الخباء» كأفضل عمل روائي عام ١٩٩٦، وترجمتها الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى الإنجليزية، وصدرت بالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية واليونانية.

ـ صدرت روايتها الثانية «الباذنجانة الزرقاء» عن «دار شرقيات»، القاهرة عام ١٩٩٨م، وأعيد طباعتها في «دار الآداب عام ٢٠٠٠م»،

بيروت، وفازت بجائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ٢٠٠٠م، وترجمت إلى الإنجليزية والألمانية والإيطالية.

ـ صدر لها كتاب «محرمات قبلية» عن المركز الثقافي العربي بيروت عام ٢٠٠٨م.

ـ صدرت لها عام ٢٠١٠م روايتها الرابعة «بروكلين هايتس»، فازت الرواية بجائزة الجامعة الأمريكية عام ٢٠١٠م وترشحت لقائمة البوكر العربية.

نقرات الظباء

صور قديمة من الماضي تملأ الجدران، تظهر فيها وجوه، وتخبئ حكايات وأسرارًا. هي كل ما تملكه بطلة الرواية من زمن انقضى، فتحكي لنا تاريخًا عائليًا بشخصياته النسائية الغنية بتفاصيل تميز كلًّا منهن، وتظهر أصول أجدادها الكريمة ومروءتهم وانتقال ملكية الأرض وثرواتهم عبر الزمن، وتَتَتبع الأنساب وتظهر قيمة الأصالة بطرحها ثقافة نقاء نسل الخيل عند العرب .

بين عالم البدو وتقاليده وعالم المدينة وغربة الروح الحرة، تأتي ملامح حكايات الكاتبة ميرال الطحاوى ودائمًا ما تؤنس نفوس شخصياتها بعلاقات صداقة بينهم وبين الحيوانات والأشجار والطيور عندما تعطى صفة إنسانية لكل ما يحيط بهم؛ فتكسب عالمهم خيالًا ومتعة تنتقل للقارئ من خلال سطور الرواية.

ميرال الطحاوي، كاتبة وروائية مصرية من أبرز كُتاب جيل التسعينيات؛ فقد تم اختيار روايتها الأولى «الخباء» كأحسن رواية لعام ١٩٩٦. وفي عام ٢٠٠٠، كانت أول كاتبة مصرية تحصل على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عن روايتها «الباذنجانة الزرقاء». ورشحت روايتها «بروكلين هايتس» ضمن القائمة القصيرة لجائزة «البوكر العربية» ٢٠١٠، وحصلت على جائزة «نجيب محفوظ للأدب الروائي» من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠١٠. ميرال الطحاوي حاليًا أستاذ مساعد للأدب العربي بجامعة «نورث كارولاينا» الأمريكية. وقد تُرجمت أعمالها إلى نحو ٢٠ لغة أجنبية.

9 789770 931271

دار الشروق — مكتبة نوميديا

www.shorouk.com